

أحمد فؤاد تيمور

# زورق أحلام



0146668



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الآداب

١٩٩٠ م - القاهرة

٣٩١٩٣٧ - ٣٩١٩٣٧



# زورق الأحلام

( أقصوصة )

تأليف

أحمد فؤاد تيمور

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا : ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى  
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

## إهداء

إلى :

من افتقدته فى صباى ، أخاً عزيزاً أكبره .

إلى من افتقدته فى عنفوان العمر ، صديقاً كريماً أحترمه .

إلى من افتقدته بعد رحيله ، خلاً وفياً ، أبكيه وأمجده .

إلى :

فقيد الشباب ابن عمى محمد سعيد تيمور .

أسجى هذه الأقصوصة ، باقةً مشوقٍ إلى مشوق ، وآيةً محبٍ  
إلى محب .

فإلى :

أن نلتقى فى رحمة الله ، مجددى العهد بيننا كما سلف ،  
فعليك سلام الله ورحمته الواسعة فى جنات الخالدة .

الزمالك

فبراير ١٩٩٢



## مناجاة

إى « طور أغلو أفندى » ...

أَحَالُكَ تَصَحَّبُ فِى مَقْرَكٍ مِنْ خِزَانَتِى ، تَسْتَرْعِى إِلَيْكَ النِّظَرَ ،  
وتَهَيِّبِ بى ، وَأَنَا عَلَى أَهْبَةِ الرِّجْلِ ، أَنْ أَضِيفَكَ إِلَى مَا أُحْمِلُ  
مِنْ كُتُبٍ وَأَسْفَارٍ ، لِيَتَّبِعَنِى فِى سَفَرَتِى إِلَى تَرْكِيَا ، مَوْطَنِكَ  
الْأَصِيلِ ، حَيْثُ تَخَلَّقْتُ فِى وَجْدَانِى فِكْرَةً سَازِجَةً نَاصِلَةً ، لَا  
رَسْمَ لَهَا وَلَا شَكْلَ ، مَا لَبِثْتُ أَنْ نَضَجْتُ وَتَرَعَرَعْتُ ، مُتَكَامِلَةً  
السَّمَاتِ ، مُتَشَابِكَةً الْأَحْدَاثِ ، مُتَلَاحِمَةً الظُّرُوفِ وَالْمَلَابِسَاتِ .

وَإِذَا بى أَنْزَلْتُ عَلَى إِرَادَتِكَ ، مُحَقِّقًا لِرَغْبَتِكَ ، فَتَمْتَدُّ يَدِى  
تَضُمُّكَ إِلَى حَقِيبَةِ الْمَتَاعِ ، لِيَهْدَأَ بِأَلْكَ ، وَتَسْتَقِرُّ نَفْسُكَ ،  
وَمَا كُنْتُ ، أَصَارُحُكَ الْقَوْلَ ، أَنْتَوَى أَنْ أَجْعَلَ مِنْكَ رَفِيقَ سَفَرٍ ،  
وَنَدِيمَ مَجْلِسٍ ، وَأَنَا ظَاعِنٌ إِلَى « اسْطَانْبُولِ » أَقْضِى بَيْنَ  
رَبِوعِهَا ، كَمَا لَوْ الْعَادَةُ ، أَجَازَةُ الْمَصِيفِ ، أَغْرِقُ فِى بَوْسْفُورِهَا  
الْجَمِيلِ جَهْدَ الشِّتَاءِ الْمُنْصَرَمِ ، وَأَتَزُودُ مِنْ جَوْهَا الْأَنْيَسِ ،  
لِلشِّتَاءِ الْجَدِيدِ ، ذَخِيرَةً تُعِينُنِى إِذَا مَا عَدْتُ إِلَى الْوَطَنِ الْحَبِيبِ ،  
عَلَى مُدَاوِمَةِ السَّعَى ، وَمَوَاصِلَةِ الْكِفَاحِ .

فَهَلْ مِنْ إِيحَاءٍ تَذْخُرُهُ لى وَتَزُوْدُنِى بِهِ ؟

سامهـلك فى حقيبتى حتى نصل إلى غايتنا ، منتظراً منك  
الإشارة ، لأستلِكَ منها ، فتخرج إلى مجتمعى ، تُسامرنى ،  
كما سَامَرْتَنِى بالأمس السُّحيق ، بحديثك الموحى الطريف ،  
ونحنُ جنباً إلى جنبٍ ، نجلس على مَرَسَى قصرِكَ الرَّجيبِ ، أنا  
فى ضُجَّةِ النهار ، وطوراً فى سَجْوَةِ الليل ، والقمرُ من فوقنا  
يُطلُّ ، متسمّعاً إلى ما تفيض به من تنانجٍ وَجَدٍ .

وأنا ، أعددك « طور أغلو أفندى » ، موعداً قريباً ، ولقاءً  
جياشاً أنيساً .

وإِنِّى على شوق ، لأرْعِيكَ الأذن ، عَوِداً على بدءٍ ، وأنت  
عن كُتُبِ مِنِّى ، تُوسِّسُ لى بما لديك من قولٍ مزيدٍ ، يَجْعَلُنِى  
أَتَوْضُّحَكَ على ضوءٍ جديدٍ ، فأجلو عن فهمى ما أبهم  
واستغلقُ ، حين كُنتَ تَسْرُدُ عَلى قِصَّتِكَ منذُ عهدٍ خلا ،  
فأفرغَتْها فى قالبٍ لعله لم يَرُقْ لك ، فكان مبعثاً لما أبديت يوم  
سفرى من صخبٍ وضجيجٍ .

فإلى أن تريم محبسك وتُطالِعَ قَارِئَكَ ، سأعكُفُ على  
مراجعتك ، والاستماع إلى شكواك ، مُدَوِّناً كل ما تتلفظ به  
فى أمانة وعناية وصدق .

وسوف يكون القارئ ، فى تلك الجولة الأخيرة ، الحُكْمُ العدلُ  
الأريب ، فحاذِرِ « طور أغلو أفندى » فيما تنوى إلهامى به ،



فعليك مجانبة النزق ، وملازمة القصد ، فيما سوف تضيف من قول وفعل .

ولعلك تستيقن أن كلَّ تَأَمَّةٍ تصدرَ عنك ، مسجلةٌ لك ، محسوبة عليك .

فإِما أن تستوطنَ القبرَ ، تشمُلكَ ظِلْمَتُهُ فِي سُبَاتِ الْفَنَاءِ الْأَبْدِيِّ .

وإِما أن يَنْبَهَ ذِكْرُكَ ، ويلمعَ نَجْمُكَ ، فتتال في سماءِ العبقريَّةِ إلى المجدِّ والخلودِ .

وَإِنِّي أَسْتودِعُكَ ، بعد أن تَحَلَّلْتَ من طوقى ، مصيرَكَ المجهولِ ، فلتشُقْ طريقَكَ إلى قَارِئِكَ لتتَبَوَّأَ من وجدانه محلاً ، فَإِنْ قُدِّرَ لَكَ الْفَوْزُ ، حَقٌّ لَكَ أَنْ تُتَوَّجَ بِهِ رَأْسُكَ ، كما كان يُتَوَّجُ غَارُ النَّصْرِ هَامَاتِ الْأَبَاطِرَةِ وَالْغَطَارِيفِ .

فسلام عليك يوم تَخَلَّقْتَ ، وساعة وُلِدْتَ ، وحين اكْتَمَلْتَ على الورقِ الصَّوْرَةَ الْمُثَلَّى الَّتِي ارْتَضَيْتَهَا وَجْهًا يُسْفِرُ عَنْكَ ، فَأَوْحَيْتَ بِهَا إِلَيَّ ، فَتَوَضَّحَتْ بَيْنَ السُّطُورِ فِي إِهَابِهَا لِمَنْ يَطَالِعُكَ ، مُؤْمِنًا بِنَفْسِكَ الْإِيمَانَ كُلِّ الْإِيمَانِ .

الوداعُ » طَوْرُ أَغْلُو أَفْنَدِي » .

امض ، حَسْبَ مَا رَسَمَهُ لَكَ الْقَدَرُ مِنْ دَرْبٍ ، وَلِيَكُنِ الْحُكْمُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْعَزِيزُ ، فِيهِ إِنْصَافٌ وَتَكْرِيمٌ .

## (١)

تسودُ مناطق الاصطياف إبَّان فصل الصيف ، من كل عام ،  
 همّة ونشاط ، ويعمّها تحرُّرٌ وانطلاق ، فإذا بمعالمها تتلألأُ  
 تَلألؤُ بهجة وإيناسٍ ، كأن يدَ فنانٍ مرحةً تطاولت إلى أرجائها  
 الفساح ، مُعريدةً بِمِرْقَمِهَا تُضْفِي عليها رَوْنَقَ الألوان ، وتُنْفِي  
 عنها ، في طِلَاءٍ أَخَازٍ ، صدأَ الفتور وسبات الشتاء .

لم يَشِدْ مضيقُ « البوسفور » في « اسطنبول » من هذه  
 السنة الخالدة ، كلما هجم الحر بأنفاسه المتقدة ، يلفح الوجوه ،  
 ويصلى الأعصاب .

وتتجمع الحشودُ ، نازحةٌ إليه تُزجِمُهُ في ضفَّتَيْهِ ، فَيُحْسِنُ  
 وفادَتِهَا ، يَهْبِئُهَا في كرم ضيافةٍ ، ورحابة صدرٍ ، رخاوة الجو  
 وطيب المقام .

فلا تلبث مغانيه الرشيقة ، وقصوره السماء أن تَفْصُ  
 بأشتات المصطافين من مختلف البقاع والأصقاع ، كما تفصُ  
 الخلية بنحلها الدوب ، لا يهدأ لهم على مدَّ اليوم سعى ، ولا  
 ينقطع لهم ، مع مجئ الليل ، جلبة وضجيج .

وما أن يرتفع قرص الشمس ، من خلف التلال الخضراء ، في  
 أقصى الشرق مشعاً الضياء ، حتى تنفرج نوافذ المغاني تغازله  
 في ابتسامات رحاب ، فتتفد خيوطه السادرة إلى أعماقها ،

متسللة إلى المخادع والحدور ، تلامس العيون الناعسة ، وتلثم  
الحدود النائمة ، لتسترسل في معابثاتها ، مُثَقَلَة الدُّعَابَة ،  
حتى تنبؤ المضاجعُ بأصحابها ، فلا يعتم الخليج أن يَضِجُ بِهَرَجٍ  
ومراح .

ولا تهمد تلك الدوامَةُ عن السعى عندما تغيب الشمس ،  
وُسُدِّل الليل أستار الظلام ، إنما تمتد دوائرها إلى المساهر  
تكسوها ، في نشوة برداء من نور الألق ، تضئ ثريَّاتُه  
المتوهجة، كأنها نثار من اللجين مذاب .

على حين تَعْصِبُ جبينها بلافتات ضخام ، عارضةً على  
القاصدين ، الغوانى متجردات أو شبه متجردات ، لا يسترهن  
إلا شغوف ، تُظهرهن في أوضاع مغرية ، توحى للناظرين بما في  
أحناثها من مباحج وألطف ، فلا تلبث أن تجتاحها موجة عارمة  
من هَوَسِ المجونِ ، تختلط فيها أصوات المخمورين برنين  
الكؤوس السكرى ، لتضطرم بأنغام الموسيقى اللاهية في تنافر  
وشجار ، يمجها الملهى إلى الطريق ، فتضيف إلى ضوئائه  
ضوءاء .

تلك هي روح الصيف ، يلهو بها المضيق متحرراً من قيود  
الشتاء ، في ترمد وانعتاق .

وفى قرية من قرى البوسفور المتباينة ، يرتفع قصر فخم له  
على المضيق مرسى فسيح ، يقودك إليه باب حديدى كبير تزينه  
نقوش طريقة الشكل ، تستوحى من أساطير بيزنطية صورها  
المنحوتة على مصراعيه .

أما عضادتا الباب ، فموصولتان بسياج أسود ، امتد يرقد  
فى شطريه على قاعدة من حجر قصمها الباب بمصراعيه نصفين  
متخاصمين ، فتناقرا يحمل كلاهما السياج ، عن يمين وشمال ،  
وقد برزت أعمدته المتراصة ، تشرب إلى عل ، مشبعة القد ،  
شامخة الرأس ، كأنها الحراب الظافرة ، تُشهد السماء على  
انتصارها فى زهو وخيلاء .

فإن يُمَتَّ شطر المرسى تبتغى السير عليه ، احتملتك قَدَمَاكَ  
فى حديقة شجراء ، ذات أَيْكٍ وِغصون ، يكسوها عشب نابت  
كأنه رداء سندسى ، امتد فى وسطه مَمْشًى معبد من الحجارة  
رحيب ، تغطى بصلبه المتطاوُل ، يرقد بين العشب كأنما هو سيف  
مُرَهَفُ الحدين ، شق البستانَ شطرين ، تفرقت فيهما أدواحُ  
وارفة ، حافلة بشمارها من فاكهة نادرة ، هى للعين إغراء  
وبهجة ، وللمذاق مساعً لذيذٌ .

وتحتضن الحديقة فيما تحتضنه ، مغنىً رشيقاً فى قامته ،  
أنيقاً فى وجهته ، وإن بدا للناظرين ضئيل الحجم منكمش

القَد ، هو لحارس القصر وأسرته ، سكن الدنيا ، ومن الفاقة لهم ملجأ سلام وأمان .

( ٢ )

وَمِثْلِكَ الْقَصْرَ وَمَا يَتَّبِعُهُ غَطْرِيفٌ مِنْ أَهْلِ الرَّيْفِ آلٌ إِلَيْهِ بِحَقٍّ الْإِرْثِ فِي عَمٍّ عَقِيمٍ وَدَعِ الْحَيَاةَ دُونَ أَنْ تَكْتَحِلَ لَهُ عَيْنٌ بِوَلِيدٍ يَسْتَبْشِرُ بِهِ ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ .

وانتقل القصر إلى ابن أخيه « طور أغلو أفندى » فأمسكه ضائناً به ، ولكنه في الوقت نفسه مُقْتَرٌ عَلَيْهِ لَا يَمْدُ إِلَيْهِ يَدُ الْإِصْلَاحِ وَالتَّعْمِيرِ ، إِلَّا إِذَا اسْتَفْحَلَتْ عَلَيْهِ وَأُلْحَتْ عَلَيْهِ الضَّرُورَةُ تَهْدِدُهُ ، بِشَرٍّ وَشِيكٍ .

بَيَدَ أَنْ الْقَصْرَ بَقِيَ يَجَاهِدُ صَوْلَةَ الزَّمَنِ ، بِمَا لَهُ مِنْ أَصْلٍ رَاسِخٍ ، وَمَنْبَتٍ كَرِيمٍ .

لَبِثَ « طُورُ أَغْلُو أَفَنْدَى » مُتَّزِناً ، بِالْغِ الْحَرُصِ عَلَى غَنَاهُ ، لَا تَنْبَسِطُ لَهُ كَفٌّ إِلَّا مُرْغَمَةٌ ، وَلَا تَكَادُ تَنْفَرِجُ بَعْطَاءٍ حَتَّى يَجَارَ بِالشُّكَايَةِ ، يَلْعَنُ تِلْكَ الْمَغَارِمَ الَّتِي تُسَبِّبُ لَهُ آثَارَ بَعْدِ أَنْ ، الْغَبْنُ وَالْخُسَارُ ، وَمَا إِنْ تَشْتَدُّ هَيْجَتُهُ حَتَّى يَفْرُقَ يَدَيْهِ فِي اسْتِيَاءٍ بَلِيغٍ كَأَنَّهُ يَفْتَقِصُ مِنْهُمَا عَلَى هَذَا التَّبْدِيدِ وَذَلِكَ التَّبْذِيرِ .

وَأَنْسِيقاً لِتِلْكَ السَّنَةِ الْحَمِيدَةِ فِي التَّحْفِظِ وَالْاِقْتِصَادِ ،

توافرت له ثروة طائلة ، لا تتوقف على مر الأيام من تضخم  
ونماء .

ويُهلُّ « طور أغلو أفندى » بطلعته على قصره مع فصل  
الصيف ، يأبى إلا أن ينخرط فى سلك القاديين على المضيق ،  
من طلاب المتعة والاصطياف ، لا يعف مطالب عيشه ، من  
مسألة ، ولا الأرقام من مُحاسبة ، يعتصرها أشد اعتصار ،  
ليتنف عن كل ما لا حاجة به ، ولا ضرورة له ، دون أن يفتنه  
بريق المغريات من أطياب وطرف ، وله على تحمّل ما ألزم به  
نفسه من صرامة الطبع وصلابة الإرادة ما يدرأ عنه التزق  
والشطط والإسراف .

وعلى خُفارة القصر يقوم حارسٌ شيخٌ له امرأة وبتان ، ورثه  
« طور أغلو أفندى » عن عمه فيما ورث ، فأبقى عليه يستعين  
به على الحراسة فى فصل الشتاء ، حين يصدف عنه مع فلول  
الصيف ، قاصداً مشتاه البعيد بين الحقول والجبال ، يسعد فى  
كنفه بالدفء ، نجاءً من رياح الشمال القارسة ، تمضى إلى  
المضيق فى موكب الثلج ، فتتجمد أطرافه ، وتشل حركته ،  
أما حين ينزل بقصره مع مطلع الصيف ، فتنهض تلك الأسرة  
الحارسة بخدمته ، والسهر على راحته ، دون أن تجاز على هذا  
العمل من المكافأة بمزيد .

ومن عادته ، إنْ هو اعتزَمَ السفرَ ، أن يسبق رحيله ببرقية  
تحمّل على جناحيها إلى حارسه ، عبر الأثير ، نبأً مقدّمه ،  
فيتحاملُ الرجلُ يَلِمُ قِوَاهُ متوجّهاً إلى المرفأ الكبير ، يخطرُ في  
خُطى واهنة ، متوكئاً على عصاه .

وينشطُ هناك بين الزُحمة ، يُعدُّ العُدَّةَ لاستقبال سيده ،  
تتراقص على محياه بشاشة وترحاب .

على هذا النحو جرّت الحياة بالرجلين سنواتٍ ، دونَ تخلفٍ أو  
قُصُورٍ .

### (٣٤)

استبان الصيف ، ونزح « طور أغلو أفندي » كمألوف عادته  
إلى « مضيق البوسفور » سعياً وراء الرفاهة والاستمتاع ، وقد  
سبقته برقيته المعهودة إلى حارسه الأمين .

ورست الباخرة التي أقلته من موطنه الأصيل على مشارف  
البحر الأسود ، فخرج إلى سَطْحِهَا يَسْتَجْلِي مطالع « اسطامبول »  
ويتوضّع مرقأها الكبير .

واستخلص لنفسه ، بين جمع المسافرين ، على حاقّة السفينة ،  
مكاناً قصياً ، اتخذهُ مرقبة له ، يتصفح منه وجوه المستقبلين ،  
ليرفع يده بالتحية إلى حارسه حين يَلْمَحُهُ ويلقاه .

واحتشد من حوله زُمْلَةُ السُّفَرِ ، يعترضونه بينهم كالليمونة ،  
 فى اختلاط وتدافع ، منصرفين عنه إلى المرسى يَلْوَحُونَ  
 ويتصايحون لَا يُحْسِنُونَ بَوَاطِنَهُمْ عَلَيْهِ ، فَأَشْرَابُ بَعْنَقِهِ عَلَى  
 رؤوس الجمع يَتَشَمُّمُ الهَوَاءَ ، يَوْشِكُ أَنْ يَخْتَنِقَ ، وَمَا فَتَتَتْ  
 عَيْنَاهُ هَائِمَتَيْنِ فِي أَرْجَاءِ الْمَرْسَى تَرْتَصِدُ حَارِسَ الْقَصْرِ .

ما كان أكبر خبيته ، وكم كانت دهشته !

إنه لم يتبين الحارس واقفاً ، كما عهده ، يَخْصُهُ بِابْتِسَامَةٍ  
 احْتِقَاءً وَتَرْحِيبٍ ، فَتَنَكَّصَ عَنْ مَكَانِهِ خَاسِئاً ، يَصُبُّ عَلَى الرَّجُلِ  
 جَامَ غَضَبِهِ ، وَيَتَوَعَّدُهُ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، بِأَشَدِّ عِقَابٍ وَأَسْوَأِ  
 تَنْكِيلٍ .

كان اليومُ قَانِظاً ، وَالشَّمْسُ حَادَّةٌ تَكْوِي الْجِبَاهَ ، فَانْشَى  
 «طور أغلو أفندى» عَلَى حَقِيبَتَيْهِ ، مُسْتَوْدِعٌ زَادَهُ يَحْتَمِلُهُمَا  
 بِأَدَى الْإِنْكَارِ وَالتَّأْفُفِ ، وَالْعَرَقُ عَلَى جَبِينِهِ يَتَفَقَّدُ مِنْهُ ، دُونَ  
 أَنْ يَكُونَ لَهُ حِيلَةٌ ، فَيَأْنِ يَجْفَأُ مَا تَسَاقَطَ مِنْهُ عَلَى عَيْنَيْهِ ،  
 يَلْسَعُ جَفْنَيْهِ ، فَأَغْمَضَهُمَا يَذْهَبُ عَنْهُمَا الْحَرَقَةُ ، فَتَعَثَّرَ فِي  
 سَعِيهِ يَسُدُّ الطَّرِيقَ بِحَقِيبَتَيْهِ .

واختلطت به رُقَّةُ الرحلة ، يتعجلونه إِلَى سُلْمِ السَّفِينَةِ ، وَهُمْ  
 يَبْرَظُمُونَ ، لَا تَأْخُذُهُمْ بِهِ هَوَادَةٌ ، فَتَرْنَحُ بِثِقَلِهِ يَتَخَبِطُ بَيْنَ  
 جَدْرَانِهَا وَهُوَ يَرِيمُ بَنْتَ الْيَمِّ .

وشعر بالسُّلْمِ يَتَأَرَّجُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، عَلَى وَشِكِ أَنْ يَطِيحَ



به ، إن هو لم يتيقظ لنفسه يحيطها بتوازن وثبات ، فْتَصَانَدَ  
بكتفيه على الحبال يَدْرُجُ حَذِرَ الخطوِ ، تتراعى على الحواجز  
حقيباته .

ولما استقر على المرقأ ، حاصره الحمالون ، دون أن يُفسحوا  
له وقتا ، يلتقط أنفاسه ويعود إلى صوابه ، عارضين عليه  
خدماتهم فى لَجَاجَةٍ ، طامعين أن ينالهم من ذلك الغطريف  
الرفى عطاءً سميناً .

ولم يحتشم غلامٌ من غلمان الميناء ، فجأً عنيد ، أن انكثفاً  
على الحقيبتين ينتزعُهُمَا غَضَباً فى لَجَاجَةٍ وإلحاح ، حرصاً على  
المنافع والأرزاق .

فغضب « طور أغلو أفندى » ينهره فى مُشَادَةٍ من شتائم  
وتوبيخ ، ومن ثم تسلل بين الجمع المحتشد يغادر المرقأ ، حانقاً  
على حارسه ، يقرقر فى صدره كالهرة قَرَقَرَاتٍ غيظٍ دفين  
« سَيرَى ذلك الخفير ما يناله من وعيد .. سوف أطرده من  
خِدْمَتِي ... لن أبقى عليه بعد اليوم .. ذلك الغفلُ الكسول » .

وبرز إلى الساحة العريضة يعتل عليه ساعدهُ بما حمل من  
أمتعة ، فالتقى بسيارة حَافِلَةٍ سُرْعَانًا ما ارتقاها ، يزج فيها  
بجِرمه المتكثِّلِ زجاً ، ويَزَحِمُ رُؤَادَهَا بكرشه وحقيبتيه ، متخبطاً

الخطير ، مهوَّش الحركات ، فحاصرتُه على القوَرِ زمزماَتُ  
امتعاَضِر واستياء .

وبعد لأي ربح عن مقعدٍ خالٍ ، استضافه مقامٌ عن كُتَبٍ من  
إحدى النوافذ ، فتهاَلَكَ عليه لاهثاً ، وعمد إلى رأسه يطل به  
منه ، يَسْتَنْدِي لوجهه المحتقِنَ ، الهواءَ الرطبَ .

وجرَّت السيارةُ أحمالها يتعرجُ بها الطريقُ ويستقيم وسط  
المدينة الزاخرة بالمآذن الشَّمَاءِ ، تارةً تتوقف وطوراً تسير  
مُطَاوِعَةً تلميحاً شُرْطَى المرور ، نافذة الصبر على ما يشيعُ  
حولها من هَرَجٍ واختلال ، حتى شَارَقَتُ الطريق الصاعد ،  
يَتَحَوَّى في طوله على جسم الجبل ، فطرقت ترقية مكروية  
الأنفاس واهنة القوى ، تجاهد في عناء مواصلة الشوط ، وما  
عَثَمَ أن تلقاها سهل جميل تقوم على ضفافه أشجارٌ باسقة ،  
انبسَطت ظلالها الوارفة ، تُخَفُّ عنها وطأة التعب معيدةً إليها  
التوئبَ والانطلاق ، ليحاذِي بها الطريق الساحلي ، يواجهها  
المضيقُ من جديد بمياهه المتوَّبةِ ، والسفن تُوغَلُ فيه من طَرَقِيهِ ،  
على حَذَرٍ ، ينبعث منها في الحين بعد الحين ، صفير متقطع  
يشبه النعيقَ ، تُثِيرُ الغافلَ من غفلته ، ليجانب الخطر ، مخلياً  
لها وجه الخليج .

ووصلت السيارة الحافلة إلى موقفها عند القصر ، فلملم  
« طور أغلو أفندى » شعته يرميها ، مُثَقَلًا بزاده ، فلق الخطو ،  
يؤله ساعده .

وطالعه قصره عليه جهامة وحزن ، فدفع بابه مهتاج  
الأوصال ، فالتقت به الحديقة خاوية على عروشها ليس بها من  
أنيس ، فزَعَقَ فى حدة ينادى أهل الدار ، ولاحت ، على بُعد  
من جانب الحديقة امرأة الحارس فى زى الحداد .

ثوب سابغ البياض يتهدل إلى الكعيتين ، وأكمام تُخفى  
الساعدين ، وقد انسدل على رأسها خمار أبيض ، وانعقد على  
جبينها منديل لا توشيه إلا حاشية من حرير .

ومن خلفها جاءت بنتاها حاسرتي الرأس ، مرسلتى الشعر ،  
أما ثوبيهما فإنه عصرى الطراز ، متضايق عند الخصر ، لا  
يجاوز الركبة إلا قليلا ، يسفر عن ساقيهما فى غير تصون ولا  
احتشام .

وفرطت من « طور أغلو أفندى » نظرة فاحصة إلى  
الفتاتين ، وظل يتوسمهما فى اشتياق وإعجاب .

وأوشكت حدة ثورته أن تنكسر ، بيد أنه تماسك يزور برأسه  
عنهما ، وأسر إلى نفسه : الموقف موقف حزم ، فلاكن متشدداً

لا أَقْرَظُ ولا أَلِين ، واندفع يتوخى زوجة الحارس محتدً اللهجة  
متنمراً العين :

أين زوجك ؟ ... كيف تقاعس عني ، فلم يحضر إلى المرفأ  
لاستقبالي ؟ ... تركني وشأني .. فتجشمت من المضايقات ما  
تجشمت ؟ ألم تصله برقيتي ؟ ... أرسلتها إليه منذ أسبوع ،  
فأين هو ... ؟ خبريني .

وواجهته المرأة عليها إجهاشة البكاء ، فارتج عليه بعض  
الوقت ، ثم علا بصوته يردد قوله :

أفى ماتم نحن ... ؟ أهكذا يستقبل رب البيت بعد غيبة  
الشتاء الطويل ؟ .. وشرقت المرأة بدمعها ، لا تحير جواباً .  
وتلفظ « طور أغلو أفندى » يسائلها فى اهتمام :

ماذا وقع ... ماذا جرى ... ؟ أفصحى ... أسرقِ القصر ؟  
أنهبتُ تحفه ؟ ... أين زوجك ؟ .. أفى مخفر الشرطة هو  
يجابه الصعاب ... ؟! تكلمى .. عليكم وعليه اللعنة ... !  
فازدادت المرأة نحيباً ، وتلعثمت تحجب مخنوقة الصوت :

ألا ترانى يا سيدى فى ثوب الحداد ؟... لقد لى زوجى  
نداء ربه ... رحلَ إلى عالم الخالدين ... هو الآن مع الملائكة  
الأبرار فى جنة النعيم ...

فغشيت « طور أغلو أفندى » سحابةً من كآبة ، وأطبّقَ عليه  
صمتٌ ، فلم ينبس بحرف .

وانبرت الفتاتان تؤكدان له النبأ الفاجع فى صوت تفتاله  
العبرات :

نعم مات ... مات ا ... خَلَفْنَا بلا عَوْن ولا سَنَد ... لَيْتَهُ  
يعود .

وانْتَهَمَرَتْ دُمُوعُهُمَا فى لوعة بالغة .

واضطرب لسان الرجل يهمس لنفسه وهو فى دهشة :

مات ... مات !! ...

ثم جابه المرأة يستوضح :

متى ؟ متى كان ؟

- منذ أسبوع ... دفن مع الأصيل .

فغمغم « طور أغلو أفندى » وقد انهار غضبه ، ولاح على  
محياء التأثير :

رحمة الله عليه ... كان رجلا طيب القلب ... البركة فيك  
... كلنا إلى هذا المصير .

ثم تقدم من القصر متخلعة خطاه ، واختفى فيه تشرد به

تأملات ، وفى اثره الفتاتان مثقلتان بحقيبيته ، تقودهما أرملة  
الحارس الفقيد فى خطوها الوئيد .

(٤)

وقبيل الغروب نفذ « طور أغلو أفندى » من الباب الحديدى  
إلى مرسى القصر ، واتخذ مجلسه هناك عاقد الجبين ، مشغول  
البال ، تسوده حيرة ، ويستبد به تفكير .

لم تكن الحسرة على موت الحارس هى شاغله ، كُلُّ حىُّ  
مصيْرُه الزوالُ لا بُدُّ . إنَّما انصبَّ تفكيرُه فى مكافأة الرجل ،  
تلك الدودة المنهومة تزحفُ إلى مُدخِرِ ماله تستترِفُه ، فيتقاصر  
ويذلُّ ، وازداد تجهُّمه عندما استخرج من جيبه حطامَ قلم .  
انبعثَ يدوْنُ به أرقاما على ورقة صفراء بالية ، يحاسبُ المكافأة  
وتحاسبه فى عنادٍ مريرٍ .

وفيما هو مُشتَبِكٌ مع أرقامه فى نزاعٍ محتدم يناوشُها  
وتناوشُه ، باعْتَتَه أرملةُ الفقيد تسعى إليه حاملةً صينية  
القهوة ، يتضوُّعُ منها أريجُ البُنِّ العطر ، فسارعَ بِقَيْبِ الورقة  
فى جيبه ، مضفياً على وجهه دلائلَ التَحَسُّرِ والأسى .

ومشت المرأة إليه ، تضع الصينية بين يديه ، ثم انثنت على  
القدح تترعُّه وفى قبضتها المرتعشة أبريق القهوة لا يقرُّ .

فنهض « طور أغلو أفندى » يتناول منها القدر وهو يقول  
بصوتٍ لَيْنِ المَكَّاسِرِ :

لا تَشْقَى عَلَى نَفْسِكَ ...

وأكمل ملء قَدَحِهِ ، ثم احتمله بين أَصْبَعَيْهِ وعَادَ إلى مقعده  
يستوى عليه فى حُرْصٍ ، يرشِفُ من القَدَحِ رَشَقَاتٍ تَلَوَّ رَشَقَاتٍ ،  
يلتذُّ بِمِزَاجِهَا الحُلُوِّ .

وظَلَّتِ المرأةُ واقفةً عن قربٍ تَنْتَظِرُ الإشارةَ منه .

فالتفت إليها يقول متطرِّفٌ اللُّهْجَةَ ، وقد اتَّسَعَتْ عَلَى فَمِهِ  
ابْتِسَامَةٌ مصنوعةٌ :

اجْلِسِي ... أراكِ متعبةً .

تَمْنَعَتِ المرأةُ مُتَهَيِّبَةً ، فألح عليها يدعوها أن تستريح :

أرجوكِ ... لا تَلْبِثِي واقفةً ...

وجلسَتِ المرأةُ على حرفِ المقعدِ فى تَأْدُبٍ تتلاعبُ بِحَاشِيَةِ  
مِطْرَفِهَا لا تنبِسُ ، وبِقِيَا برهةٍ لا يتبادَلانِ العباراتُ ، غيرَ أن  
الصَّمتَ أثْقَلَ عَلَى « طور أغلو أفندى » فتطَلَّعَ إِلَيْهَا يُلَاطِفُهَا  
بقوله :

- جميلٌ « البوسفور » ... وما حال الصيدِ هذه السنة ... ؟

- يقولون إن البحر يمتلئ به وَيَفِيضُ .

ولم تزد .

وأظلهما السكوتُ عوداً على بدءٍ .

كانت المرأة قلقة ، لا يقرُّ لها قرارٌ ولا تسكنُ لها حركةٌ ،  
كأنما يَعْتَمِلُ في صدرها أمرٌ تريد الإفضاء به .

وفطن « طور أغلو أفندي » إلى ما يتناجى به وجدانها ،  
فتنحج يقول لِيَصْرِفَهَا عما تُريد الإقصاح به :

قهوةٌ لذيدة ... سَلِمَتْ يَدَاكِ ... لم أذوقُ مثلاً منذُ شهورٍ  
فتنهَّدتِ المرأةُ تُجِيبُ ، وقد وَجَدَتْ منفذاً لما تُريد الإفضاء  
به :

أخشى يا سيدي أن تكون هذه آخرُ مرةٍ تَتَذَوَّقُ فيها من يدي  
قدَحَ القهوةِ الذي تَبْتَغِيهِ .

وَبُوعِثَ « طور أغلو أفندي » بما سَمِعَ ، ورأى أنه قد أوقعَ  
نفسَهُ في الشَّرِكِ الذي خَشِيَهُ ، فقال مُتَلَطِّفاً في مُدَاوَرَةٍ :

أمامكِ عمرٌ مديدٌ ... وسأظُقِرُ دوماً بالقهوة من صُنِعَ يَدَيْكِ .

- كلامٌ طيِّبٌ تُشْكِرُ عليه يا سيدي، لكن .. لكن الموتَ سينالُ



منا لا مَرَّ .. لقد ذهب زوجي إلى الرفيق الأعلى .. من كان  
يصدق ؟ أما أنا فأَسَايِرُ الأيامَ ، قَدَمٌ في القبرِ وأخرى تسعى  
حتى يَحِينَ الأجلُ المكتوبُ .

وَأَسْكَنَهَا « طور أغلو أفندي » يقول :

- ماذا تقصدين ... ؟

- يعلم سيدي أني امرأة قد عَلتَ بها السَّنُ ، ونَهَكَهَا  
الضَّعْفُ.

- أَتَقْصِدينَ ... ؟

ومد « طور أغلو أفندي » في نَبْرَةٍ صَوْتِهِ مُمَهِّدًا لِلْمَرْأَةِ  
فرصةً جواب ، مخافة أن يُقَيِّدَ نفسه بكلمةٍ بل بحرفٍ يَتَّخِذُ حُجَّةً  
عليه .

فَعَمَّقَمَتِ العَجُوزُ :

- التَّخَلَّى عن حراسةِ القصرِ .

- ماذا يدعوكِ إلى التَّخَلَّى ؟

- لم أَعُدْ قَادِرَةً على عملٍ .

- تُسَاعِدُكِ ابنتاكِ .

- إننا ثلاثُ نسوةٍ ليس بيننا رَجُلٌ ... في بقائنا ما يَمُدُّ  
إلى القصرِ عيونَ الطَّامِعِينَ ... الحَيْرُ يا سيدي أن تَعْفِيَنِي من

الحراسة ... أنتَ فى حاجة إلى رجلٍ ... فالرجالُ تخشى  
الرجالَ.

وتشاغل « طور أغلو أفندى » قليلا ، ثم نطقَ :  
أَهْذهِ مَشِيَّتُكَ ؟

- هذا قرارى أملاه على الضميرُ ، وما أكنُّه لك من إخلاصٍ  
وإعزاز ... عهدتُكَ طفلا تدرِّج بين يَدَيَّ ، حين كان عمُّكَ يأتى  
بك هنا لقضاء عطلة الصيف ... لا أسمح أن أغشك بعدَ هذا  
العمر المديد ... دَعْنِي يا بُنَيَّ أُرْحَلُ ... ثمَّةَ زكرياتٍ وذكرياتٍ  
تدعونى إلى الرحيل .

ومالَ « طور أغلو أفندى » على المرأة يَضْطُطُّ يَدَها قائلا فى  
صوتٍ متَحَنِّنٍ :

اتركى الأمر أَدْبِرْهُ ... سأريحُكَ .  
- أُملى فيكَ كبيرٌ .

وقامت العجوز من لدنُّه ، وعادَ رَبُّ القصرِ أرقامَه يَنْحَرُطُ  
معها فى عراكٍ عنيفٍ يريدها على أن تَتَخَفَّضَ ، وتأبى هى أن  
تَتَقَاصَرَ وتَلِين !

فرمى بالقلم والورقة جانبا ، ورام مجلسَه الوثير ، يذرْعُ  
المرسَى ذُهوباً وجيئةً ، تبدو عليه حيرةٌ ، وتَتَدَاوَلُهُ شواغلُ

النَّفَقَاتِ وَالتَّكَالُيفِ ! وَالْحَيَاةُ مِنْ حَوْلِهِ تَجْرِي فِي بِهِجَةٍ وَإِنْسَانٍ ،  
فَالْحَوَافِلُ الْبَحْرِيَّةُ دَائِبَةُ التَّجَوُّالِ بَيْنَ حِصْنَتِي الْخَلِيجِ عَامِرَةً  
بِرُؤَاذِهَا ، تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ شَاطِئِهِ لِتَسْلِمَهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ ،  
رَائِحَةٌ غَادِيَّةٌ ، لَا تَسْكُنُ لَهَا حَرَكَةٌ فِي إِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ .

( ٥ )

وانطوى يوم ...

وأصيلا مضى « طور أغلو أفندى » يجوسُ خلال المنزل  
الأنيق ، مغنى الحارس الفقيد فى جولةٍ فاحصةٍ ، يَحْصِي وَيَدَوِّنُ  
كل ما تقع عليه عينه اليقظةُ مما أدركه البلى أو لحقه العطبُ .

وإذ أتم جولته ، واستودع الورقَ تعقيباته فى دقَّةٍ وعنايةٍ ،  
رفع رأسه إلى الأرملة العجوز ، وهى منكشئةٌ فى ركنها على  
حَشِيَّةٍ مِنْ قُطْنٍ تَرْدُدُ الْأَذْكَارَ وَالْأَوْرَادَ ، فَقَطَعَ عَلَيْهَا التَّلَاوَةَ  
يَتَلَفَّظُ بِعِبَارَاتِهِ عَلَى رِسْلٍ :

الآن وجب إنهاءُ مسألةِ المكافأةِ ... أظنك لا تجهلين ما  
لزوجكِ وما عليه ؟

فغامَ وجهُ المرأةِ ، وَتَبَادَرَتْ إِلَى عَيْنَيْهَا الدَّمُوعُ وَهِنِمَتْ :  
خيرُكُ علينا سابقٌ يا سيِّدى .

وتعاطمَ « طور أغلو أفندى » منتفشاً كالطاووس يقول :

شكراً ... شكراً لك ... ولكن لدى بعض الملاحظات أودُّ أن  
أُطلعَكَ عليها .

وَحَقَّقْ بصره إلى أوراقه يَقلِّبُ النظر فيما دَوَّن ، ثم سَهَا  
برأسه ينطق فى صوتٍ ملئ :

ثُمَّ أشياء وأشياءُ تعاوَرَتْها يدُ التخريب والتبديد ... فمثلاً  
الروحُ الزَّجاجيُّ الفاخرُ على النافذة البحرية هُشِّمَ منه جزء كبيرُ  
... وقبضة الباب الرئيسى المفضضة مفقودة .. لا أثر لها ...  
وثلاثة أقفال علاها الصدأ فلم تعد صالحة لعمل ... ذلك فوق  
ما نال الأدوات الصحية وغيرها من تلف ... فإذا أردنا أن  
نُنهيَ المحاسبةَ لزم أولاً أن نُقَوِّمَ تلك التوالف ، ثم نَسْتَخْلِصَ  
ثَمَنَها من المكافأة المستحقة .

وقاطعته المرأة تُهينُ معبلة الصوت :

لا تُجَشِّمَ نفسَكَ ذلك العناء يا سيدى ... أعطنا ما تسخو به  
نفسَكَ وكَفِّى .

- الحسابُ هو الحسابُ ... وإننى أحبُّ الحق ، لا أنتقص  
مال أحد ولا أرضى أن يُنتَقَصَ حقى عند أحد !

- حسبى أن تقرأ الفاتحة على رُوح زوجى وتترحمُ عليه .. لا  
المال ولا الجاه يُعوِّضَانِنى ما فقدت .

وانْبَعَثَتْ - شَرِقةً بالدَّمْع - تَعَدُّ محاسِنَ زوجها ، وتذكر  
 ما كان يتَحَلَّى به من أمانةٍ ونزاهةٍ وإخلاصٍ ، على حين انخرط  
 « طور أغلو أفندى » يُجهد نفسه مع الأرقام فى ضَرْبٍ وطَرْحٍ  
 وقسمةٍ غَيْرٍ عابئٍ بما يسمع ، ثم رام مكانه ، واقترب من  
 المرأة ، يقدِّم كشف الحساب ، طالبا منها بعد أن تُراجعه ،  
 وتستوثق من صِحِّته ، أن تَذِيلَهُ بِإمضاءها .  
 وأقام ينتظر .

ومسحت المرأة عينيهما بطَرْفِ خمارها ، وتسلمت منه الورقة ،  
 ثم أَجَرَتْ عليها القلم ، دون أن تَسْتَوْثِقَ أو تَقْرَأَ ما حَوَتْ ،  
 مخليَةً ذِمَّةَ « طور أغلو أفندى » من مكافأة زوجها ... زوجها  
 الذى خدَم القصر وسيدَه الأول ومن تَوَارَثُوهُ من بعده خلال أعوام  
 ثلاثين .

وما أُنْمِتَ التوقيعَ باسمها على الإقرار ، حتى قدَّمَ لها « طور  
 أغلو أفندى » ظَرْفًا هزيلًا يحتوى على ثُمالة المكافأة ، فتناولته  
 المرأة ، ودسَّته فى جيبيها وعينها تنذِّبها العبرات .

فجمجم « طور أغلو أفندى » مشدوهاً :

ألا تَعْدِينِ النقودَ ... ؟

فحدَّجَتْهُ المرأةُ تقول فى صوتها المنهوك :

ثَقُنَّا بِكَ كَبِيرَةً يَا سِيدِي ... كُلُّنَا يَعْرِفُ لَكَ حُبُّكَ لِلْحَقِّ ...  
عَوْضَكَ اللَّهُ عَنَا كُلَّ خَيْرٍ ، وَجَعَلَ أَيَّامَكَ مَشْرِقَةً بِالْإِقْبَالِ  
وَالسَّعَدِ .

## (٦)

وَلَأَسْرَةُ الْحَارِسِ الْفَقِيدِ صَدِيقُ أَحَدٍ مِنْ عُمَالِ الْبَحْرِ ، مَنَّبَتُهُ  
تُرْكِيَا ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أُرُومَتِهِ الْيُونَانِيَّةِ ، رَأْسُ مَالِهِ الْأَوْحَدِ فِي  
الدُّنْيَا حُطَامَ قَارِبٍ ، يَسْتَعِينُهُ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْعَيْشِ ، وَاسْتِجْلَابِ  
الرِّزْقِ .

حَرَقَتْهُ الْأَصِيلَةُ الصَّيْدَ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُصَبِّ مِنْهُ كَسْبٌ رِيحًا ،  
فَاتَّخَذَ مِنْ قَارِبِهِ الْعَجُورِزَ مَطِيَّةً ذُلُولًا ، لِكُلِّ حَقِيرٍ مَمْتَهِنٍ مِنْ  
الْأَثْقَالِ وَالْأَحْمَالِ .

وَفِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ يَبْتَئِسُ لَهُ حَظُّهُ الْأَنْحَسَ ، فَيَسُوقُ إِلَيْهِ  
مَنْ يَرْتَضَى قَارِبَهُ ، مِنْ نَفَايَاتِ الْحَيِّ ، وَسِيلَةً عَرَجَاءَ لِلنَّزْهَةِ  
وَالْمَلْهَاةِ ، لِقَاءِ ثَمَنِ هَزِيلٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ ، فَيُظِلُّ  
صَاحِبُنَا أَلِيفَ حَاجَةٍ وَحَلِيفَ قَاقَةٍ ، لَا يَنْحَلُّ تَعَقُّدُهُ وَلَا يَسْهَلُ  
مَتَعَسَّرُهُ .

فَإِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الْخُصَاصَةُ ، وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ الضَّرُورَةُ ، وَسَارَتْ  
بِهِ الْحَيَاةُ عَبُوسًا مُتَجَهِّمَةً ، تَنْذِرُهُ بِسَوْءٍ وَشَرٍّ ، فَنَزَعَ إِلَى حَارِسِ  
الْقَصْرِ ، مُرَجِّهَا إِلَيْهِ أَمَلَهُ ، طَامِعًا فِي إِصْلَاحِ حَالِهِ ، بِمَا سَوْفَ

يصله به الخدين الأريحي من هبة تُعينه هو وعباله على قسوة  
الأيام وضراوة العيش .

وما أن يفرغ الأحدبُ بابَ الصديق ، شاكياً بلواه ، حتى  
يُوليه الخدينُ معروفه ، ويزف إليه نواله فى سخاءٍ وإخاءٍ ،  
فيصدفُ عنه الأحدب فى بشاشة وارتياح ، عامراً الجيب ،  
مُبتهج الفؤاد ، يلهج بالثناء والشكر والدعاء .

وكانت ليالى الشتاء الباردة ، تجمعُ فى كثير من الأحيان ،  
بين الصديقين ، فيألفُ منزل الحفارة النوتى الأحدبُ ، فى حجرة  
الضيافة ، خالياً إلى صنوه ينادمه وهما عن كَثَب من الموقد  
النحاسيُّ ، يكرعان أكواب الشاي المعطر ، والنار فى الموقد  
النحاسي اللامع عن قرب تضطرم ، مشبعةً فى أرجاء الحجرة  
حرارة الأنفاس ، فتتضرجُ وجنتاهما بحُمرة ، وهما مُنصرفانِ  
إلى الحديث يتناقلا ، بين الرُشفة والرُشفة ، مُتضمناً فى  
بساطةٍ تفتأ من أخبار ، ونثار من أحداثٍ .

والناس ، من عادتهم ، إذا هم انتظموا فى مجلس يسمرُون  
، تداولوا الكلام فيما يشغلهم من أمورٍ ويُقلقهم من شئونٍ ، بيدَ  
أن لذلك الحديث العَبُوسِ أوقاتاً مُشرقةً يَجَنحُ فيها إلى المسلاة  
والملهاة ، فإن تَرامى بهم القولُ إلى مُضاحكةٍ ، تجاذبت الدُعاة ،  
ولا شك ، طائفةٌ ممن يعرفون ويألفون ، فيستهدفونهم بالنكتة

السَّاحِرَةِ ، والملاحِظَةِ اللَّذِيعَةِ ، والنَّقْدِ المَرِيرِ فِي تَهْلِيلِ وَفَهْمِهِ  
وَتَصْفِيْقِ .

ولم يسلم « طور أغلو أفندي » في تلك الندوات الشتوية ،  
من أن يؤلف النُّعْمَةَ الطَّاعِيَّةَ فِي لَحْنِ المفاكهة كلما تطرقت  
الدُّعابة بين الصديقين تُعَدُّ نَوَادِرَهُ ، وتُصَوِّرُ نقائمه ، وما طُبِعَ  
عليه من حرصٍ وشُحٍّ .

ويعلم الأحذب فيما يعلم ، أن ربَّ القصر مولعٌ بالصيد إلى  
حَدِّ الهَوَسِ ، إلا أنه لا يملكُ من أمره قليلاً أو كثيراً ، فقد  
تخلقت فيه ، منذ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ ، نزعةٌ غَلَابَةُ طاعِيَّةٌ ، نَمَتْ  
معه كلما تقدمت به السن ، فمو الإِعْصَارِ الهادر ، تحاصرُهُ  
وتقف به حين تراوده نفسه أن يبسط يده إلى دَوْحَةِ الحَيَاةِ  
الفينانة ، يقطفُ من ألطافها ، طرائفَ الشمار ، فتكفُّ يده ،  
ضائقةً بأن يبذل ماله فيما لا جَدْوَى مِنْهُ ولا نَفْعَ . كل شئٍ  
عندها بحسبان؛ فلا تزالُ به ، حتى تصرفهُ عن الأسقاطِ  
والتوافهِ في تحكُّمِ وانتصار ، فإنها تَرَبَّأُ به أن يدَقَّ بِمُدَّخَرِهِ إلا  
إذا وثِقَتْ من الريح وثوقاً لا يتسرَّبُ إِلَيْهِ غَبْنٌ أو خُسْرَانٌ .  
وإنها لتنكر عليه في جبروت تسلطها أن يفتنني من أدوات  
البحر قارباً بل مجدافاً أو أن يتملِّكَ من آلات القَنْصِ شَصاً بل  
خيلاً .



وَأَتَاهَا لِتَسْتَعْظِمَ فِي تَصَوُّنِهَا عَلَى خَزَائِنِهِ أَنْ يَرْكَبَ الْبَحْرَ ،  
مُنْتَفِقاً فِي لَهْوِهِ بَارَةً .

نعم . إنها لَنْ تَدَعُهُ يَتَجَشَّمُ ، فِي سَبِيلِ مَرْجِهِ ، إِهْدَارَ مَالِهِ  
يَنْثُرُهُ عَلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ كَمَا يَنْثُرُ الزَّارِعُ التَّبْنَ عَنِ الشَّعِيرِ ،  
وَهُوَ يَنْفِضُهُ فِي الْعَرَاءِ ، فَيَتَطَايَرُ فِي الْهَوَاءِ هَبَاءً .

لَمْ يَتَكَلَّفُ النِّفْقَةَ وَلَهُ مِنَ الْخَلْلَانِ مَا لَهُ ، يَقْصِدُونَهُ ، فِي الْغَدَاةِ  
أَوْ الْعَشَى ، خَاطِبِينَ وَدَّهَ ، مُتَحَبِّينَ إِلَيْهِ طَمَعاً فِي جَلْسَةِ  
مَأْنُوسَةٍ عَلَى مَرَسَاهُ الرَّشِيقِ ؟

فَلْيُقَدِّمْ مِنْهُمْ ، كَمَا يَتَطَفَّلُونَ عَلَيْهِ ، فِي غَيْرِ مَوَارِثَةٍ أَوْ  
اسْتِحْيَاءٍ .

لَنْ تَجِيزَ لَهُ الْبَحْرَ إِلَّا إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ أَحَدُ أَتْرَابِهِ الْمِيسُورِينَ ،  
دَاعِياً إِيَّاهُ إِلَى مَصَاحِبَتِهِ فِي جَوْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، مُتَكَفِّلاً بِمَا لِلرَّحْلَةِ مِنْ  
إِنْفَاقٍ ، مُوَسِّياً جَوَانِبَ قَارِبِهِ بِمَا يُلْزِمُ الْقَانِصَ مِنْ عِتَادٍ وَسِلَاحٍ .

فَإِنْ تَقَاصَرَ عَنْهُ أَتْرَابُهُ فَهُوَ مُتَخَلِّفٌ عَنِ الْمَضَى فَيُظَلُّ سَجِينٌ  
قَصْرُهُ لَا يَرْمِيهِ ، وَإِنْ تَقَادَمَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ ، فَيَأْلَفُهُ الْمَضِيقُ ، عِنْدَ  
الْأَصِيلِ ، مَائِلاً عَلَى مَرَسَاهُ ، مُتَحَبِّراً النُّظُرَاتِ يَتَمَلَّاهُ فِي تَرَدُّدٍ  
وَتَخَاذُلٍ وَإِنْكَسَارٍ ، وَمِيَاهُهُ تَغْدُو أَمَامَ عَيْنَيْهِ ، غَنِيَّةٌ بِمَا يَسْبَحُ  
فِيهَا مِنْ سَمَكٍ وَافِرِ الْأَسْرَابِ .

وبين آن وآن ، تشدّ إحدى السمكات عن القطيع مختربةً  
صفحة الماء ، تتطايّر في الهواء ، رشيقةً في قَدّها الميَّاس .  
فيتبعُها « طور أغلو أفندي » بعين شرهة ، وهي تغوصُ قافلةً  
إلى سربها في الأعماق ، فيشعر باللهفة وحسرة النفس .

وتمتد به الوقفة حيث هو ، يرثو إلى مياه الخليج ولا يفتأ يرنو  
إليه لا يكلّ ولا يملّ ، فإن ألحّت عليه الرغبة في الصيد ،  
اندفع إلى الحجر العريض عند الماء يفتّعه ، غامساً ساعده في  
اليمّ يلهو به ، موهماً نفسه ، وهو يعايب بأصابعه أحشاء  
الموج ، أنه صائد ألقى بصنّارته فيما رمى به الصائدون من  
شُصوص وشباك .

وفيما انتهى إلى الأحذب من أمر ربّ القصر أن تلك النزعة  
العاتية فيه نحت طيف المرأة عن دنياه ، فلم يعد لها في دولته  
رفيف إلا ما كان من بعض مغامرات عقيمة همّ بها في ريعان  
شبابه ، ولم يعد لها في حياته صداها المونس البهيج .

لم يغب عن فطنته الاقتصادية المتوقدة ، أن حواء الخالدة  
مجلبة خرابٍ وشر ، فما شأنه وشأنها ؟  
لن يدعها تخدعه وتغويه .

ليتحرّز منها ، وليتّز عنها لغيره من الحمقى ، تبتّز منهم ما  
تبتّز ، تاركة له رصيده يتزايد ، وثروته تقفز بها الأرقام تلو  
الأرقام ، حتى تصبح كالطود الشامخ لا تنال منتهاه العيون .

على هذا النحو ذاب طيف المرأة من خيال « طور أغلو أفندى » ولم يعد يُجرِّبه على ظنّه ، إلا فى الرؤى والأحلام ، فى تحفُّظٍ واحتشامٍ .

وشدّ ما كان النوتى ساعةً يودّع صديقه الحارس ، ويزيل منزل الخفّارة ، يمسك خُطاه على قارعة الطريق حيال المبنى الرّشيق ، متطلعاً إليه يدير فيه النظر ، مُعيداً فى أذنيه ما جرى بينه وبين خَدِينِه من حديث ، فتجيش فى صدره أطماعٌ ، كأنها رؤوس الجبال الشّوامخ ، تترامى على البعد ، يعدها غير واهم ، عسيرة المنال .

أما القصر والحديقة والمرسى ، فيظفر كل على حدة فى رأس التوتى ، بمشروعاتٍ رحابٍ ، توقّر لصاحبها العيش الرضى والخير المستطاب .

وربّما امتدّ به التأمّل فى شأن « طور أغلو أفندى » وما يملك ، طوال الشهور تتوضح له الحياة فى رحابها ناعمةٌ رخيّةٌ ، إن دانت له تلك الأمانى ، وتحققت تلك الرغاب .

(٧)

تقاطرت تلك الذكريات على النوتى الأحدث ، حينما سمّا بيده مُحَيِّياً الأسرة فى مُنْصَرَفِها ، عند المرفأ الكبير ، بعد أن

أخلى سبيلها « طور أغلو أفندى » وحاسبها فى مكافأة الراحل  
ذلك الحساب الذى تشيب حقاً من هوله ملائكة القبور .

وارتدَّ النوتى إلى كوخه ، والأفكارُ تلتطمُ فى رأسه ، وكأن  
وعْيَه انقلبَ بحراً مُواجاً ، يتصارعُ عُبَابُهُ ، وتصفُرُ فيه الريح .  
لماذا شعر بسارية من غبطة ، تُثلج صدره ، وتُرّج أعطافه ،  
وقت أن ألقى بالتوديع إلى أسرة صديقه الحارس ، صديقه  
صاحب الأيادى البيض عليه ؟

ألا يجدر به أن يبتسّسَ لذلك الفراق الذى لا لقاء بعده ؟

أيَهْزَأُ بالموتى ، ويخونُ ذكراهم طمعاً فى نعيم دُنْيَوِيٍّ ؟

وتمشّت فى الأحذب قشعريرة ، جعلته لا يُحسِنُ التماسُكُ ،  
فحبسَ خَطَاهُ وأوى إلى جذع دَوْحَةٍ من أدواح الطريق ظليلة ،  
عمدَ به ظهره ، يسترد أنفاسه المتلاحقة ، ويستجلبُ لنفسه  
المضطربة نسيم الراحة وبردة السلام .

لا رَتَبَ عنده أنه حاسدٌ لتلك الأسرة فيما قَارَتَ به فى بيت  
الحراسة الأتنيق من عيش ناعم هنيئ .

ولا مِرَّةً أنه تمنى لها هذا المصير ، ليخلو له سبيل ؟ إلى  
المغنى المهنّدم ، يخلفُ صديقه ويُقرضُ سلطانه عليه ، يحدّوه  
جشعُ بغيض .

إنه ليحسُّ بغبطةٍ تُؤذيه أكثر مما تُسعدُه .  
إنه يشعر بالتهافت يتفشَّى في أوصاله يكاد يهدُّ كيانه ،  
ويحطِّمُ وعيَه ، وسوقَه إلى حَبال .

ألا من خلاص ؟

ما ضيَّره إن هو عرَّج على مشربه المألوف ، يستعين على  
ضعفه بحسوةٍ من خمر ؟

ألم يتواتر عنها أنها قاتلةُ الأحزان ، ومفرقةُ الهموم ؟  
عليه بها ...

وتخطئ الطريق ، يتعجلُ خطاه .

(٨)

وأخذ الأحدب إلى مشربه المألوف ، يمازج الكأسَ كأنما  
يُمازج جليساً أنيساً ، يصيبُ من الشراب الرشفة تلو الرشفة ،  
على مهل ، وقد استغرق في تأملٍ وتفكير .  
أسرته ... ؟

تلك القافلة العجفاء الشوهاة ... ؟

لأنها تتمثل له إبلاً ، تائهةً بها خطاها ، تشقُّ آفاق صحراء  
جرداء جدباء ، متلهبةً الوجه ، ليس فيها ظلٌ لمستظل ، ولا  
نَهْلَةٌ لصديان .

إن ذكرها ، لتزكُم أنفه ، وتشير في نفسه التَّقَرُّزُ والاشمئزاز .  
ولم يتمالك ، حين هُبَّتْ سِيرُتُهَا عليه أن حتق ، يغضن من  
جِبِينِهِ ، ويقذف الأرضَ ببصقَةٍ عريضة ، حملتُ عنه حسرة  
النَّفْسِ ، ولوعة الفؤادِ .

وللم الرجل شعثَ فِكْرِهِ ، يتناجى في صمت :

أبناء ... ؟

خَسُوا من أبناء .

ثمراتُ نالَ منها العطب ، خرجت من صُلْبِهِ ، إلى مجمع  
البشر ، جرائيمُ إيذاءٍ وضلالٍ .

كبيرُهم ، لا عمره اللد ، ولا أبقاه ، شيطان من شياطين  
الجِنِّ ، هو إبليسَ وزبانيته ، ظهيرُ غواية ، وسندُ شر .

امتطى صهوة الرذيلة يغزو بها دُنْيَا الأحياء ، ناشراً رداء  
فساده وبردة أذاه .

آنسه سَوْقُ المخدرات أداةَ ليننةٍ مطواعة ، لمن هم في ساحتها  
من التُّجارِ العتاة ، فَمَثَلُ في حياة يومه يخشى النور ، وتَهَيَّبُ  
النَّهَارُ ، لا يُسْفِرُ له ظِل ، إلا في جَنِّحِ الظلام كالحفافيش لا  
تلوذُ بالقضاءِ إلا مع مجئ الليل ، وانحسار الضياءِ .

حديثه فى مخابئ المدمنين ، مهموسٌ ، فيه توريةٌ وإيهام ،  
يتخافتُ به أصحابُ الكَيْفِ ، على حذرٍ وخفاءٍ .

بيد أن لحماة الأمن ، هم الآخرون ، عيون كالحفافيش حادةٌ  
الإبصار ، تنفذ فى الظلمة تمزقُ غَبَشَتَها فتحيلها صُبْحاً مُبْصِراً  
يفضح المتخفى ، ويكشف عن المُتَسَتِّرِ فى مُحَاذِرَةٍ ، بالملاءة  
السوداء .

وذاوات مساء ، تمكنت الشرطَةُ من صاحبنا ، حين كان يُروِجُ  
تجارته المُسْمُومَةِ فى متاهةٍ غائِرةٍ فى بطن الجبل ، بنَجْوَةٍ عن  
الأنظار ، تخيروها لِنَدَوَاتِهِمْ ، مَثَابَةً عَرِيْدَةً وفساد ، يحيطونها  
بسُرِّيَةٍ وكتمان ، فتسلل إليها حُماة الأمن ، على هُدًى من  
عيونهم الساهرة ، مُتَنَكِّرين فى سمات المدمنين الأصلاء ،  
متظاهرين بالتَهَافُتِ على المخدِّرِ ، يحثُّون صَاحِبَتَا فى مذَلَّةٍ  
واستعطاف أن ينيلهم منه ، ولو أقل مقدار ، بالثمن الذى يَحِلُّه  
لنفسه ويرتضيه ، لما يعانونه من حسرةِ الحرمانِ ، وقسوةِ  
الإدمان .

ولما وثق بهم ، بعد لُجْاجةٍ وإلحافٍ ، كشف القناعَ عن  
حقيقته ، وما أن استَلَّ المخدِّرُ من مَكْمَنِهِ ، حتى أوقعوا القبض  
عليه .

وسبق إلى المخفر عَائِرةٌ خُطاه ، تارة يَنْجِي باللائمة على

طالعه التُّحْس ، وطوراً هو باكى العين ، يدفع التُّهْمَة عن نفسه  
ويتبرأ مما نُسب إليه .

غير أن القانون لم يعبأ إلى دِفاعِهِ ، فنال منه ، يُنزل به أشدَّ  
عقوبة ، وأعسرَ قصاصٍ .

وها هو ذا ، منذ عهدٍ خلا ، طريدَ المجتمع ، طريحَ  
السُّجون ، يَكْفُرُ ، خلف السياج والقضبان ، عن فعلته الشنعاء  
بما استحقَّه من عقابٍ .

أما مصيرُ غده المرموقِ ، حين يلفظه محبسه إلى حرية  
وانطلاق ، فمطوىٌّ فى مجاهل الغيب ، ليس فيه بصيص من  
أمل تتخيلُ من خلاله لثله حياة يعمُّها ضياءٌ ، ويسودها فلاحٌ  
واستقامةٌ وطهرٌ .

وأما ثانى أبنائه ، عليه النِّقْمَة ، فلم يكن بأمثل من أخيه .  
متعطلٌ قعودٌ . له من الأولاد ثلاثة ، رابعهم أمُّهم ، أفواه  
عاوية ، ويطون خاوية ، وأجسام عارية ، وغمغمات لا تنفكُ  
باكيةً شاكيةً ، لزام عليه ، هو كبشُ الفداء ، أن يُخْرِصَهُمْ ،  
مديرًا المأكُل ، والمأوى ، والملبسَ ، ليكتب لهم فى الحياة نصيباً  
على حينَ ينصرفُ أبوهم إلى مُجُونِهِ ، متسكِّعاً على الأبواب  
الخلفية لمساهرٍ مُربيةٍ ، يتلقطُ منها نفاياتِ الغوانى فى  
منصرفِهِمْ مع انسلاخ الليل ثملاتٍ . يقدمُنَّ سلعةً رخيصةً



لِلرَاغِبِينَ فِيهِنَّ ، لِقَاءِ مَا يُقْبِضُهُ مِنْ ثَمَنِ إِثْمٍ وَكَسْبٍ حَرَامٍ ،  
لَا يَنْشَبُ أَنْ يَتَخَرَّ بِالتُّمَامِ وَالْكَمَالِ ، فِي زُجَاجَةٍ مِنْ خَمْرٍ وَضِيعَةٍ  
السُّمْعَةِ ، كَرِيهَةِ الْمَذَاقِ .

وَيَنْسَاقُ قَافِلًا إِلَى الْكُوخِ ، وَتَبَاشِيرُ الْفَجْرِ تَلُوحُ ، مُتَرَنِّحَةً  
خَطَاهُ ، تَعْلُو عَقِيرَتُهُ بِأَغْنِيَاتٍ مُبْتَذَلَةٍ ، يُؤَدِّيهَا صَوْتُهُ الْمَخْمُورُ  
فِي عَرَبَدَةٍ مِنَ الْأَلْحَانِ ، وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ نِيَامٌ ، وَالْمَغَانِي هَاجِعَةٌ  
فِي سَبَاتٍ وَسُكُونٍ .

مَا يَرْقَى صَدَى الْأَغَانِي إِلَى مَخْدَعِ النُّوتَى ، تَقَرُّعُ بِخَلَاَعَتِهَا  
سَمْعَهُ ، حَتَّى يَتَطَايَرُ النَّعَاسُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَيَهْبُؤُ مِنْ مَرْقَدِهِ ،  
مَقْلُوبِ السَّحْنَةِ ، يَتَلَقَّى السُّكْرَانَ ، ثَائِرًا عَلَيْهِ ، يَنَاقِشُهُ  
الْحِسَابَ مُحْتَدًّا ، يَقْصِفُ بِالْقَوْلِ كَالرَّعْدِ .

وَيَخْتَلِطُ صَوْتُ الرَّجُلَيْنِ فِي زَيْطَةٍ ؛ الْأَبُ يَلْعَنُ وَيَسُبُّ هَادِرًا  
مُزْمَجِرًا ، وَالْابْنُ سَادِرٌ فِي غَيْبِهِ ، لَا يَفْتَأُ يَشْدُو بِالْأَهَازِيحِ فِي  
تَصَانِيحٍ مُرْتَفِعٍ ، يَشْبَهُ الْحَشْرَجَةَ .

فَيَنْقَلِبُ الدَّرْبُ السَّاجِي إِلَى ضَوْضَاءٍ وَصَحْبٍ ، يَهْزِ الْمَغَانِي  
الْمَجَاوِرَةُ فِي هَرَجٍ وَمَرْجٍ .

وَيَتَسَكَّلُ أَهْلُ الْحَيِّ مِنْ مَخَادِعِهِمْ ، يُؤْمِنُونَ الدَّرْبَ الْهَائِجَ ،  
فِي لِبَوسِ النُّومِ ، مُتَسَخِّطِينَ بِرَمِيْنٍ ، وَمَا انْفَكَّتْ تَلْرُحٌ عَلَى  
جُفُونِهِمْ الْحَدْرَةَ فَلَوْلُ النَّعَاسِ .

وَيَضُمُّهُمْ دَارُ الْأَحْدَبِ ، فَيَنْهَضُ كُلُّ مِنْهُمْ بِدَوْرِهِ يَعْمَلُ فِي  
كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ عَلَى قَضَى الْخِصَامِ ، وَحَسَمِ الشَّجَارَةِ ، جَاهِدِينَ فِي  
إِعَادَةِ الرِّزْقِ إِلَى سَابِقِ أَمْنِهِ ، كَاطِمِينَ الْغَيْظَ ، حِفَاطًا عَلَى  
الْوَدِّ وَحُسْنِ الْجَوَارِ .

وَأَمَّا أَصْغَرُ أَبْنَائِهِ ، عَفَى اللَّهُ عَنْهُ وَهَدَاهُ ، فَعِلَامٌ قَاصِرُ  
الْوَعَى ، ضَعِيفُ الْبِنْيَةِ اتَّخَذَ مِنَ الْحِدَادَةِ حِرْفَةً لَهُ ، ارْتِضَاهُ شَيْخُ  
مِنْ شُيُوخِ الْمُهَنَّةِ السَّالِفِينَ عَوْنًا لَهُ ، فَلَيْسَ فِي مَتَجَرِّهِ مَا يَخْشَى  
كَسَادَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَقَدْ طَحَنَهُ الْكِبَرُ ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ  
بَنَسْجِهَا ، فَتَوَارَى فِي كَهْفِ النَّسْيَانِ ، لَا يَحِجُّ إِلَيْهِ مِنْ رُؤَايِهِ  
إِلَّا الْقَلَّةُ ، فَاَنْكَمَشَ حَاتِوَتُهُ ، وَتَطَامَنَ رِزْقُهُ ، وَإِنْ ظَلَّ فِي عَالَمِ  
الْحِدَادَةِ ، عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِهَا الْأَفْذَاذِ ، يَحْتَفِظُ لَهُ الْأُنْدَادُ  
وَالنَّظَرَاءُ مِنْ جِيلِهِ بِالزَّعَامَةِ لَا رَبِّبَ ، وَتَتَنَادَرُ بِحَذِيقِهِ وَمَهَارِثِهِ  
أَشْبَالُ الْحَاضِرِ فِي إِعْجَابٍ وَتَقْدِيرٍ وَإِعْظَامِ .

وَأَبَى الْغِلَامُ إِلَّا مَلَازِمَتَهُ ، يَصِلُ مَعَهُ السَّيْرَ ، وَيَتَأَدَّبُ عَلَى  
يَدَيْهِ ، لَا عَنْ تَمْحِصٍ وَدَرَايَةٍ ، بَلْ تَوَكُّلًا بِهِ وَمَحَبَّةً لَهُ ، فَقَدْ  
دَأَّبَ الشَّيْخَ يَتَرَفَّقُ بِهِ ، وَيَكْرُمُ مَعَامِلَتَهُ . مِمَّا حَمَلَ الْغِلَامُ عَلَى  
التُّفَانِي فِي خِدْمَتِهِ ، يَتَمَسَّكُ بِهِ سَيْدًا لَهُ ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُصَاوِلُ  
الْحَيَاةَ فِي كَنْفِهِ مَحْدُودَ الرِّزْقِ ، مُتَخَاضِعَ الْكَسْبِ ، يَكَادُ أَجْرُ  
يَوْمِهِ لَا يَفِي بِكَسْرَةٍ مِنْ خَبِزِ .

وليس للغلام فيما أصابه من تخلفٍ وتقاصر ، جريرةٌ أو ذنبُ  
، إذ أنزلتْ به قدمه يوماً وهو طفلُ ، فوقع على رأسه وأصابته  
لوثةٌ ، أفقدته التَّكاملَ والتَّكافؤَ والنُّمُو .

وإذا بركبَ الحياةَ يحتملهُ في موكبِ الأحياءِ أصمُّ الوَعْيِ ،  
متحجراً الفهم . أولئك أولاده الذكور ... ؟

ويصقُّ الأحذبُ يُمزِم ، تتوضَّعُ على مخايله أطيافُ حسرةٍ  
وتندم .

ذكور ... !

أهؤلاء الأوغاد ذكورٌ حقاً ، له أن يفاخرَ بهم ، ويركنَ إليهم ،  
ويعولَ عليهم في مشورةٍ تُطلبُ أو عملٍ يُنجزُ ؟

حسبه منهم مسلكتهم الشائنُ ، وما فيه من خِسةٍ وعارٍ .

ليلتهمهم البحرُ إلى قرارٍ سحيق ، ويطوهم الموجُ على غير  
رجعةٍ يريحهُ منهم ، وليخلدْ هو إلى نفسه ، يكملُ جهادهُ فيما  
تبقى من أيام يعيشها ، لا يتركزُ في توفير عيشه على أحدٍ ،  
إلا على بصيرته وساعديه .

وتحيرُ الأحذبُ في جلسته ، تزحُّمُ الأفكارُ من كل صوبٍ ،  
وهو يشْتَفُ ثُمالةَ الكأس ، مُبْتَسِنَ النفس .

كيف لا يحزنُ وهذه كُبرى بناته ، عليها وعلى مثيلاتها اللعنةُ

تعايشُ خليلاً لها على مرأى ومسمعٍ من الأشهادِ ، هازئة بما  
للشرف من تصونٍ وحِفاظٍ ، جاعلةٌ منه ، وهو أبوها ، صاحبُ  
الحقِّ عليها ، وصمةٌ عارٍ في جبينِ الحى ؟  
لتكمل الحياة مع عشيقها بِمَعزِلٍ منه ومنأى .

لن يراها .

لن يرضاها .

لن يغفرَ لها ، ولو قصدته جائيةً تائبَةً ، تعفُرَ جَبِينَهَا  
بِالتُّرابِ ، عندَ قَدَمَيْهِ .

إن حذاءه الذى يَنْتَعِلُهُ لأشرفُ منها وأفضَلُ ، فهو ، على  
أسوأِ فَرَضٍ ، لا يُدْنِسُ مقدساتِ الرُّبِّ ولا يتلهى بِمعتقداتِ  
السماءِ ، بل يَربأ أن يسوقه إلى فسادهِ شرِّ .

سُحْقاً للجميع ... ليذهبوا إلى الجحيمِ !

وَقَرَطَتْ مِنْهُ بِصَقَّةٍ أَرْسَلَهَا فِي حَنْقٍ ، مستنكرةً تلكِ  
الملايساتِ المريبةِ مُحاصِرُهُ وتُلاحِقُهُ كشواظٍ من نارٍ تقشعر منها  
حديثه .

ونادى ساقِيِ الحائَةِ ، لِيُسَعِفَهُ بِقَنِينَةٍ أُخْرَى يواصلُ بِهَا  
الشَّرابَ ، فينْفِيْ فِي حَسَوَةٍ مِنْهَا غَصَاصَةَ الضميرِ ويُفَرِّقُ فِي  
سلاكها الخبيثةِ والحَزْزَى .

وَيَكْرُحُ الرَّجُلُ مِنْهَا كَأْساً كَامِلاً ، ويعتمد رأسه بين راحتيه ،  
فيتمثل له طيفٌ شتيمٌ الخَلْقَةُ ، مترهلٌ الجُرْمُ ، يعرف فيه زوجته  
تلك النمرَةُ الضاربةُ ، وقد وقفت على رأسه مجنحة الذراعين ،  
تجلده بلسانها الحاد ، وترجمه بالمهانة والسباب .

كلبٌ مسعور ينبحه ، ولا يفتأ ينبحه ، يضر له فى قرارة  
النفس الحقد والشر .

لقد تزوجها منذ ثلاثين عاماً ، أو يربو ، ويا ليت له لم يغُلْ بها  
رقبته ويقيدها بحياته .

ماذا جنى منها غير نفسٍ لثيمةٍ ، ومزاجٍ حامضٍ ؟! وهذه  
الشِرْذِمَةُ من كلابِ عاويةٍ ، لا نفعَ فيهم ولا خير .

ويرفع الكأس إلى شفتيه ، وما يلبث أن يعاوده سهوُّه .

وسرعان ما تتفرج أساريره ، وتطمئن نفسه ، ويتلأأ على  
مُحيّاهِ إشراق ، وهو يقوِّصُ فى مقعدهِ ، يستروح ما هب عليه  
من شذاً ذكياً .

ويلوح له وجهُ « فورتييه » صُغرى بناته ، فيتلقاهُ قمرأ  
مكتمل النُمو ، يشعُّ منه نورُ ألاق ، يُمزق الضبابَ القاتمَ  
المُخيمَ على حياته ، ويضيء له عَتَمَةَ دُنْيَاهُ ، مبدداً من حوله  
الوَحْشَةَ واليأسَ ، باعثاً فيه البهجةَ والأُنْسَ .

« فورتييه » هي شُرَيَانَةُ الْحَيِّ وَقَلْبُهُ النَّابِضُ ، من أجلها  
اتَّبَعَتْ يُغَالِبَ الْعَيْشِ ، وَتَصَارَعَ الْأَيَّامَ مَتَشَبِّهًا بِالْحَيَاةِ مَا وَسِعَهُ  
التَّشَبُّهُتُ ... إن عليه رسالة لم تصل إلى مستقرها بعد ...  
رسالة نحو تلك الزهرة الوادعة الطهور ، وكأنه استنبتتها من  
طينة غير التي أخرجت إخوتها هؤلاء الأراذل الأوغاد .

هي أنيسة الطبع ، عَطُوفَةٌ عَلَيْهِ حَفِيَّةٌ بِهِ ، يَأْلَفُهَا سَلَسَةً  
القياد دائمة الحياء ، جَمَّةُ الْأَدَبِ ، إن مُحَضَّضُهَا النصح استجابت  
في طواعية ولين .

إنها دُرَّةٌ بَيْتِهِ ، وَسَلَامٌ نَفْسِهِ ، وَأَنْسٌ عَيْشِهِ .

لها هي ، هي وحدها ، سيعيش ليهيئ لها الهناء والإسعاد  
، في زوج ملهى يفرش طريقها بالذهب ، ويخلع عليها اللآلئ  
واليواقيت .

ويتوقف قليلاً في تفاؤله ، يعُبُّ الكأسَ عَباً ، وقد عاودته  
الهواجس والأوهام :

أئنّى له هذا الزوج ... ؟

ألم يعلم علم اليقين ، أن الفقر يجرّ إلى الفقر ، وأن الثراء  
يتسحب إلى الثراء ؟

إنه يبغى « لفورتييه » حياة كريمة ، تحياها بمنأى عن ذل

الحاجة ، وتعاسة الحرمان .

عليه إذن أن ينقذ إلى كَنْزٍ ، ويستلهم الكأس الهداية فيما يحيره من فكر ، فيرفعها إلى شفثيه ، يصب خمرها في حلقه دفعة واحدة ، فيتضرج خداه ، ويصعد بخار الخمر يغزو مسارب حِسَّة .

وتُعاوده الأمل بيرقش في مخيلته المخمورة لروح الحياة تبسم له وتغازله في إطار مذهب جميل من جديد ، فيُقسِمُ غير حاث في قَسَم ، وأنه لنافذ إلى المال حيث وجد ، وإن كلفه ذلك أن يسرق ، أن يتحطم ، أن يفتنى .

لن تقف في طريقه قوة ، ولن تحول دون إرادته عقبة .

أليس طمعه مشروعاً له ما يسوغه ؟

أليس لابتنته ، مَهْجَةٌ روحه ومعقده آماله ، حق بل حقوق ؟

إن لم يطمع فيما طمع ، فكيف يتألق جمالها في أفق الحياة ؟ وما يكون مصيرها في خضم العيش وتصاريق الزمن ؟

لماذا يتطاوّل عليه الضمير في تلك اللحظة المشرقة ، يُطلق في سمائه غمام سوداء ويوسوس له بكلام أجوف مشنوم ، يشبه في دَوْنِهِ هزيم الخراب وقَعْقَعَةِ الحرب . ؟

ما لك أيها الضمير ومالي ؟

إنك لأبْلَهْ مأثُون ، لا تُحْسِنُ إِلَّا التَّفْرِيعَ والتَّعْدِيدَ ، وَأَنْ لَكَ  
منطقاً أصمُّ لا يبالى ما على الآباء للأبناء من تَبَعَاتٍ رَحَابٍ ،  
ومسئولياتٍ جَسَامٍ .

« فورتينيه » عزيزتى ...

لا عليكِ ...

ستوافر لك حياةُ الأبهةِ والقراء .

وإني لكفيل بأن أسيّدَ لك فى العالمين صرّحاً فارهَ العماد ،  
خارقَ الحُسنِ ، تحليهُ النقوشِ النفيسةِ ، وتزيّنهُ أغلى ما فى  
الوجود من طُرفٍ وألطفٍ ، فتتناقلُ سيرتهِ الآفاقُ ، وتتشدّقُ  
بوجاهتهِ الركبانُ والأمطارُ .

أقسم برأسك أنى لفاعلٌ ، وإن تقاضانى التقصّى مُهَجَّتِي ،  
وَشَقَّ رَمْسِي .

لا عليكِ يا ابنتى ...

سأرمنى بِشِصَى ، وأقيمُ دونه ، لا أعافُ الجلوسَ ، ولا أكره  
الانتظار .

لقد علّمني البحر ، ذلك الماردُ المهوّل ، كيف أحتمل إن  
أردتُ ، فى آخر الشوط ، أن أنال الجزاء المنشود .

وظعنُ الأحذبُ عن المشرب ، متخلّعا فى مشيه ، تتيه به



قدماه ، فى ظلمة الليل ، وقد سَرَتَ فى أوصاله نشوة غامرة .

( ٩ )

تطايير خبيرُ جلاء الأسرة عن القصر ، فأصبح فِناؤُهُ بَيْنَ عَشِيَّةٍ  
وضُحَاهَا مِيدَانٌ تَنَافُسٍ وطِمَاحٍ .

وكيف لا ، ومنزل الحراسة متراحِبُ ، كثيرُ المرافقِ ، عظيمُ  
المغانِمِ ، يوقُرُّ لِمَنْ يظفرُ بهِ رِغَادَةُ الْعَيْشِ ، وهناءةُ الْحَيَاةِ .

فأما الحديقة فهى كنز ثمين ؛ لكل ما تنبت ثمنُ ربيعٍ بَقِيَّ  
على من يتعهدُها بالإصلاح والتشذيب التُّعْمَى والبركة .

وأما حظيرة القوارِبِ ، فهى على أطراف القصر متراحبةُ  
الْمُكْتَنَانِ ، إن تولَّتْهَا يَدٌ حاذقةٌ مديرةٌ كان من ورائها كسب كبير  
وَعُثْمٌ موفور .

لم يَعْرَبْ ذلك على الجيرة من أهل تلك القرية الْمُتَنَائِبَةِ عن  
« اسطانبول »

فيتراذقُ على القصر وَرِيهَ نَفَرٌ من الراغبين فى الحراسة ،  
محملةُ أيديهم بالهدايا أَقَانِينَ ، كأنما هى على مذبح الآلهة  
قرايين تَقْرُبُ وتودد .

وردت القصرَ بالأمس سلالٌ حافلة : ديك محمَّرٌ يَقْطُرُ منه  
الدُّسْمُ ، ودَجَاجٌ محشُوٌّ بأرز مَسْمُونٍ ، وفاكهةٌ طَيِّبَةٌ مُنْتَقَاةٌ .

واليوم استمراً « طور أوغلو أفندى » بثلاث سمكات مشويات ، على زجاجة من العرقى المعتق ، وتفككة بعدهن بمشمش وكرز وتفاح .

ثم تحشأ تحشوة مديدة ، وهو يمسح بيده على كرشه المتبعجة يريح معدته المتخمة ، ويعينها على طحن ما تملأت به من طعام سائغ شهى .

وتفياً « طور أوغلو أفندى » ظلال تلك النعمة الوارفة ، غير متعجلاً اختيار الحارس الأمين .

فليبقى مكان الحراسة شاغراً بعض حين ، وليتشد ما وسعه التشدد فى أمر الحارس الجديد من هؤلاء الذين يتقاطرون عليه لشغل ذلك المنصب الخطير .

لقد أصبح التنافس تجارة رابحة ، فقيم البدار والوقت أمامه منقسح ، والشتاء بعيد ؟ .

حسب القصر الآن أن يحرسه ربه ، متقلباً فى أعطاف النعمة ، يتلقى الهدايا الفاخرة من عشاق الحراسة الذين يلتمسون إليها كل سبيل .

ويعرك « طور أوغلو أفندى » يديه فى نشوة ما بعدها نشوة ، كلما طرق ساحته طامح جديد متشاغلة يده بزاز كريم .

ولبت الرجل على مد الأيام حَفِيًّا بِقَصَادِهِ ، ولا يهدأ له بال ،  
ولا تَقْتَرُّ له همة ، يعتصر جَبْهَتَهُ وقد انخرط يُساوم في صلابَةٍ  
وَعِنَادٍ .

فَإِنْ بُحَّ صَوْتُهُ وَنَالَهُ فُتُورٌ ، قطع نِقَاشَهُ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِهِ ، يضع  
حداً لِلْجَاغَةِ الْقَوْلِ وَلَغْوِ الْكَلَامِ ، وَيَتَحَلَّلَ عَنْ مَجْلِسِهِ ، مرفوعاً  
الهامة يخطر على المرسى خطراتِ هَيْمَانَ ، يستندى الهواء  
المفعم بِأَرِيحِ الْبَحْرِ .

#### (١٠)

وبينما كان « طور أغلو أفندى » يستمرئ ابتهاجه بما  
يستقبل من الأطايب والألطف ، إِذْ وَقَعَ حَادِثٌ جَعَلَهُ يَرَاجِعُ  
نَفْسَهُ ، وَيَفْقِقُ مِنْ غَفْوَتِهِ يَفْكُرُ تَفْكِيرَ جِدِّ ، فى أمر الحراسة  
على القصر .

أصبح ذات يوم ، قَالَفَى قفل الباب الكبير محطماً ،  
واستبانَتْ لَهُ آثَارُ عُنْفٍ عَلَى الْجِدَارِ ، فلم يبقَ لَدَيْهِ شَكٌّ فى أَنَّ  
ثُمَّةً يَدَا خَفِيَّةٍ بَيَّتَتْ لِلْقَصْرِ شَرًّا وَأَذِيَّةً .

لقد اشتد به التبرم ، واستبد به السُّخْطُ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَهْبِطْ  
مَصِيفُهُ إِلَّا لِمَشَاكِسَةِ وَنْضَالِ ، وَقَتُّهُ يَتَقَاسَمُهُ قُصَادُ جَاهِهِ ،  
وطلَّابُ رِزْقِهِ ، دونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ فى خَلْوَةٍ يَنْعَمُ فِيهَا بِوَقْتِ

دِعَّةٍ وَجَمَامِ .

هذا طامعٌ جديدٌ حلَّ عليه حينَ تَهَيَّأ ليرتشفَ قهوةَ العصر  
على مَرَسَاهُ ، وما فتئت مَخَالِلُ النُّعَاسِ تَرْتَقُ فِي عَيْنَيْهِ .

ما أَثْقَلَ على نفسه أن يستقبلَ وافداً أياً كان يَخُوضُ مشكلةً  
أو يَدْخُلُ في جَدَلٍ ، ولم يفرغْ بَعْدُ من مذاقِ قهوته ، فيصفو  
مزاجه ، ويتزَنَ فكره ، فيعاودُ بقيةَ نهاره رائقَ البَالِ ، مُنْشَرَحَ  
الصُّنْـرِ .

والويلُ كُلُّ الويلِ لمن يَطَأُ ، في تلكَ البَرْهةِ الحَرْجَةِ قَصْرَهُ أو  
يَتَرَاىَ له ظله وما أَثَقَّ يَضْبُطُ أوتارَ مزاجه بقدرِ القهوةِ ، كما  
يضبطُ الموسيقىُّ أوتارَ آلته ليغزفَ معها لحناً جديداً مُشْرِقَ  
النُّبْرةِ ، مَرِحَ الأَنْغَامِ .

يا لِلْـسُخْفِ !

أُتَقَتَّحُمُ وَحَدَّثَهُ دُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ أَوْ اسْتِثْنَانٍ ؟

أَوْ طَرْفَةٌ هُوَ مِنَ الطَّرَفِ ، تتداوله الأرقامُ ، في جلسةِ المزايدةِ ،  
صاعداً هابطةً ، لا يقوى على إعلاءِ صَوْتِهِ يَبْثُرُ حَدَّةَ المماكسةِ ؟  
ويقطعُ حَبْلَ المساومةِ ، قَيْعَايشَ صيفته ، رافه البَالِ ، يرفرف  
عليه أنسٌ وسلامٌ ؟ .

أَلَمْ يَتَقَيِّظْ ذَلِكَ الْغَرَّ الْمَأْفُونُ بِأَنْ رَبَّ الْقَصْرِ ضَائِقٌ بِحَادِثِ

يَوْمِهِ ، غير فَارِغٍ لمُجَادَلَةٍ ، شَاغِلُهُ الأَوحدُ هو الكَشْفُ ، بِشَتَّى  
الحِجَلِ ، عن سِرِّ الجَرِيمَةِ الَّتِي كَادَتْ تَقَعُ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِهِ .

وَبِحِجَةٍ مِنْ مَتَبَجِّجٍ لَمْ يَتَخَيَّرِ الوَقْتَ الَّذِي يَطَالِعُ فِيهِ « طُور  
أَغْلُو أَفْنَدَى » بِسِحِّتِهِ الغُبراءِ ، وَمَنْطِقِهِ الكَرِيهِ .

أَيُّهَلْ عَلَيْهِ خَالِي الوِفَاقِ لَا يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، كَقُصَادِ أَمْسٍ ،  
ذَخِيرَةً مِنْ ذَخَائِرِ العَيْشِ ، وَلَتَكُنْ حَبَاتُ عَنَبٍ لَا يَحْتَوِيهَا سَقَطُ  
كَمَا يَنْبَغِي ، بَلْ يُغْلَقُهَا قَرطَاسُ رَخِيصٍ .

وَحَدِّجُهُ « طُور أَغْلُو أَفْنَدَى » بِعَيْنِ غَضَبٍ يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرُّ ،  
وَتَقْوَةٍ بِقَوْلٍ كَادَ يُخْرِجُ الزَّائِرَ عَنْ تَوَقُّرِهِ ، فَيَرُدُّهُ بِكَلَامٍ خَشِنٍ ،  
يَنْتَقِصُ مِنْ كِرَامَتِهِ وَيُحِطُّ مِنْ قَدْرِهِ .

وَاحْتَدَمَتِ المُنَاقَشَةُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَحْسُ « طُور أَغْلُو أَفْنَدَى »  
النَّخْوَةَ تَأْخُذُهُ ، فَاتَّبَعِي يَحْصِمُ المُجَادَلَةَ ، عَنِيفَ اللِّهْجَةِ :

هَذِهِ هِيَ شُرُوطِي ... وَلَيْسَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْهَا .

وَيَعْمُرُ الرَّجُلُ بِيَدَيْهِ عَلَى سِرِّيَّالِهِ ، مَهْوُوشَ الحَرَكَةِ ، ثُمَّ يَنْطِقُ  
بِالإِجَابَةِ مُتَخَشِّعَ النَّبَرَةِ :

لَكِنِّهَا شُرُوطٌ مَجْجَفَةٌ ... فَأَيْنَ مَكَارِمَتُكَ لِأَهْلِ الجَبْرِ ؟

فَقَاطَعُهُ « طُور أَغْلُو أَفْنَدَى » مُسْتَنْكَرًا القَوْلَ ، وَعَقَبَ يُنْهِئِي

الجدل في حزم :

ليس أمانى فسحة تتسع للمماكسة ... هذه هي شروطى  
... إن قبلتها حضرت من غديك تتسلم مهام منصبك ... وإلا  
فلا تضيق وقتك ... وتعكر على عشتى في جدل أجوف غير  
مجد ... ، وقتي أتمن من أن يبتدل على هذا النحو الرخيص .  
ولما لم يجب الرجل ، رقع « طور أغلو أفندى » يده بالإشارة  
قائلاً :

مع السلامة .

ثم ازور عن الرجل ، يمسح أساريره المختلجة ببطن يده ،  
وهو يزدد ريقه مجهداً .

واستدار يرنو إلى فضاء المضيق ، ترتعد فرائصه ، وقبالتة  
على ضفة الخليج ، ترعاه تلال رشيقة ، تفرقت على مراقبيها  
المخضوضرة ، شواهد دور ، تتوهج من نوافذها المصابيح ،  
والشمس آذنة إلى المغرب ، كأنها عيون الأحياء ، برقت تغالظه  
بنورها المترسل على البعد ، كأنما هي النجوم أهدتها السماء  
إلى الأرض باقات من ضياء تبهج بوميضها الأنظار والقلوب .

فأنس بها « طور أغلو أفندى » وفتر لمراها كدر النفس

ولوعة الفؤاد .

(١١)

ولما التقى « طور أغلو أفندى » بِوَجْهِ الماء ، تُعَابِثُهُ  
الأمواجُ ، نازَعَتْهُ نَفْسُهُ لِلصَيْدِ ، فَقَدْ أَبْصَرَ عَلَى بَضْعِ خُطُواتِ  
منه على ضوءِ الشمسِ الغَارِيَةِ ، قَطيعاً من السَّمَكِ يَتَمَوَّجُ  
صَوْبَ الجُتُوبِ .

وَمَثَلُ يَحْدُجِ الماءِ ، مَلِيّاً ، فَتَسْرِي فِي أَوْصَالِهِ نَشْوَةُ القَانِصِ  
سَاعَةً يَشْتَبِكُ وَالسَّمَكَةَ فِي مِطَارِدَةٍ وَنِضَالٍ .

ولا يفوته وهو فى مهب الأُخيلة أن يحكى بالإشارة والتلويح  
ما تقتضيه المعركة من مرواغة واحتيال .

السَّمَكَةُ تَعَالِجُ التَّمَلُّصَ مُتَقَلِّبَةً فِي طِيَاتِ الماءِ ، وَالصَّائِدُ  
مَتَرِيصٌ بِهَا يُحْصِي عَلَيْهَا الحَرَكَةَ ، فَإِنْ تَعَاصَتْ عَلَيْهِ ، أَسْلَسَ  
لَهَا القِيَادَ تَمْوِيهَاً وَمُخَاتَلَةً ، وَحِينَ تَسْتَقَرُّ وَتَهْدَأُ يَدْفَعُ الخَبِيطُ  
إِلَيْهِ فِي عُنْفٍ وَإِصْرَارٍ ، فَتَخُوضُ السَّمَكَةُ المَعْرَكَةَ مِنْ جَدِيدٍ ،  
فِي مُكَابَرَةٍ وَاسْتِبْسَالٍ ، حَتَّى تَسْتَنْفِذَ قُوَاهَا ، وَتَقْتَرَّ مَقَاوِمَتُهَا ،  
وَيَنَالُ مِنْهَا الجَهْدُ ، وَإِنْ هِيَ إِلَّا جَذْبَةٌ مِنَ الصَّائِدِ تَخْرِجُ بِهَا  
السَّمَكَةَ مِنَ المَوْجِ عَالِقَةً بِالشَّصِّ تَخْتَلِجُ اخْتِلَاجَةَ الفَنَاءِ وَالْمَوْتِ .

من أين له تلك النشوة ، وزمرة الرفاق بمنأى عنه ، لا يبادرون  
إليه بما يتوافر لديهم من قواربٍ وعتادٍ ؟

عهدهم ، فيما سبق من أيام ، إن هم تشمّموا له شذاً في  
المضيقِ بادروا إليه ، فينقلب قصره قاعدة تجتمع يتخذونها  
ركيزة لهجومهم المنظم وغير المنظم لغزواتهم البحرية الماثوسّة .

ليس ذلك بمستغرب ، فالقصر قائم في أجمل بقعة من بقاع  
« البوسفور » نُضرة وخُضرة ، وربُّ القصر يتمثل لهم غنماً  
موفور النعمة : حديقته تُفسح لهم فرصة للهو ومسرّة وتُنبئهم من  
أشجارها البانعة أطايبها لذیذة المساع .

وكان « طور أغلو أفندی » يتعرّف فيهم على الرغم من  
حرصه وتحرّزه الوسيلة المثلى لإشباع رغبته وهواه .

ماذا تُكلفه الضیافة والاحتفاء بهم ... ؟

مرسى القصر ما هو إلا حجارة لن يُصيبها من جرّائهم تلف ،  
وثمار الحديقة يشقى في تعهدها الحارس ، فليعيشوا فيها  
فساداً ، ما دام الغبن لن يتحمّله .

أما هو فكان يتنعم بكلّ ما للبحر لديهم من أثاثٍ وعتاد ،  
دون أن يفرّم شيئاً في شبكة تتقطّع ، أو شصٍ يضيع .



أَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَصْدِقَاءُ وَالْأَخْدَانُ ... ؟

أَلَمْ يَسْتَيْقِنُوا بَعْدُ أَنَّهُمْ بَنَاءِيهِمْ عَنْهُ يَدْعُونَهُ يَتَجَرَّعُ الْأَمْرَيْنِ مِنْ  
احتباسٍ وحرمانٍ ... وأنهم بتجاهلِهِمْ لَهُ يُقَوِّتُونَ عَلَيْهِ فُرْصاً  
ذهبيةً قُلْ أَنْ يَجُودَ الْبَحْرُ عَلَى قَانَصٍ بِهِ ، شُغُوفٍ بِذَخَائِرِهِ  
ولِهَانٍ ، مِثْلَ مَا يَجُودُ بِهَا عَلَيْهِ فِي عَامِهِ هَذَا ... عَامِ الْبَرِّ  
وَالْإِخْصَابِ .

أَلَا سُحْقاً لِهَؤُلَاءِ الْأَقْرَانِ الْأَغْيَاءِ .

وَأَقْتَعَدَ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » حَجَرَ الدَّرَجِ الْعَرِيضِ الْمُنْبَسِطِ  
عَلَى الْمَاءِ ، وَانْثَنَى يَغْمِسُ فِيهِ سَاعِدَهُ كَأَنَّهُ يُطْفِئُ غَلِيلَ الرِّغْبَةِ  
الْمَشْبُوءَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ .  
وَتَاهَتْ بِهِ خَوَاطِرُهُ .

وَأَفَاقٌ مِنْ تَصَوُّرَاتِهِ عَلَى ضَرْبَاتٍ مُجْدَافٍ دَرْبٍ ، فَأَوْماً  
يَتَبَيَّنُ ، وَإِذَا بِهِ يُبْصِرُ قَارِياً غَيْرَ بَعِيدٍ ، يَبْرُزُ فِيهِ شَبْحُ النُّوْتِ  
الْأَحْدَبِ ، وَقَدْ تَرَامَتْ مِنْ جَوَانِبِهِ إِلَى الْمَاءِ خَيْوُطٌ وَشَبَاكٌ عَلَى  
حِينَ انْتِهَمَكَ يَسْتَخْرِجُ مِنْ بَطْنِ الْقَارِبِ مَا أَخْفَاهُ مِنْ مَعْدَاتِ  
الصَّيْدِ الْآخَرَى كَأَنَّمَا يَخْتَلُّ بِهَا الْأَنْظَارُ .

لَقَدْ جَلَبَ الْأَحْدَبُ لِقَارِبِهِ مِنْذَ أَيَّامٍ أَفْخَمَ مَا عَرْضَتْهُ أَسْوَاقُ

«إسطامبول» من آلة الصَيْدِ ، وها هي ذى قد توافرت لديه  
تَحْتَلِبُ عَيْنَ « طور أغلو أفندى » فى مُسْتَقَرِّهِ عَلَى مَرَسَى  
القَصْرِ ، يُسْرَحُ البَصْرَ فى المَضِيقِ ، عَلَى مَالُوفٍ عَادَتِهِ ، يَجْتَلِي  
مَحَاسِنَهُ ، مَكْتَحِلَةً بِهَا عَيْنَاهُ .

ولبثتُ أَنْظَارُ رَبِّ القَصْرِ شَرْقَةً بِمَا احتَوَاهُ قَارِبُ الْأَحْدَبِ  
العَابِرِ ، وامتَلأتْ نَفْسُهُ بِرَغْبَةٍ تَوَدُّ أَنْ تَتَفَجَّرَ مَعَ السَّمَكِ فى  
تِلَاحِهِ وَمُصَارَعَتِهِ .

كيف السَّبِيلُ إِلَى أَنْ تَنْبُتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحْدَبِ أَلْفَةً  
وَمَصَاحِبَةً ... ؟

أَيُّبَادَتُهُ بِالْكَلامِ وَرُشْدُهُ إِلَى سِرْبِ السَّمَكِ السَّابِحِ صَوْبَ  
الْجَنُوبِ ... ؟

وَهُمْ بِأَنْ يَصِيحَ بِالرَّجْلِ غَيْرَ أَنْ الْأَحْدَبَ لَمَلَمَ خِيوطُهُ وَشِبَاكَهُ ،  
وَهوى عَلَى مَجْدَافِهِ يَجْذِبُهُ إِلَيْهِ ، فَانْسَابَ الْقَارِبُ يَتَنَآى فى  
هَوَادَةٍ وَيُسْرِى .

وَصَدَقَ « طور أغلو أفندى » عَنْ حَجَرِ الدَّرَجِ العَرِيضِ عِنْدَ  
المَاءِ ، وَمَضَى عَلَى رَحْبَةِ المَرَسَى ، يَذَرُهَا بِخُطَاهُ ، عَاقِدًا يَدَيْهِ  
خَلْفَ ظَهْرِهِ ، تَهْتَزُّ كَرِشَتُهُ ، وَتَتَشَابَكُ عَيْنَاهُ بِالْقَارِبِ ، يُوَدِّعُهُ فى  
مَنْصَرَفِهِ ، وَدَاعَ وَلَهَانَ .

واختفى القارب فى معاطف المضيق كأنه طيفُ حَسَناءَ ،  
 شَرَدَتْ فى اسْتِحْيَاءٍ تَحْتَجِبُ عَنْ أَنْظَارِ « طور أغلو أفندى »  
 الجَوْعَى وهما تُتَابِعَانِهَا على البُعْدِ فى تَوَلُّهُ واشتياقٍ .

(١٢)

إن الحديدَ المنصهرَ إذا طَرَقَتْهُ اسْتِلَانُ لك يَتَشَكَّلُ بِحَسَبِ ما  
 رَسَمْتَ له من قوالبَ وَحُجُومٍ ، فإن لم تُعَاجِلْهُ بالطَّرْقِ قبل أن  
 يستردَّ صلابَتَه ، عزَّ عليك أن تبلغَ منه ما تريد .

وما النفسُ البشريَّةُ إلا شَبِيهَ ذلك المعدنِ فيما له من خصائصَ ،  
 فإن صَهَرَتْهَا الرغبةُ واستبدَّتْ بها النزوةُ ، أصبحت سِلْسَلَةُ القيادِ  
 طِيْعَةً الزَّمامِ ، لا يتعاصى عليك أن تسوقها فى الطريقِ الذى  
 رَسَمْتَ دُونَ مَشَقَّةٍ أو اسْتِكْرَاهٍ ، أما إذا فَسَحَتْ لها مُهْلَةً  
 التَّروى ، وتركَّتْ لها أن تحزِمَ الأمرَ ، فإنها لا مَحَالَةَ مستعصيةٌ  
 عليك تَسْتَبِينَ طَرِيقَهَا على بصيرةٍ وهْدًى .

كانت هذه هى فلسفة النُوتِيَّ الأَحْدَبِ فيما أَحْكَمَ من خِطَّةٍ  
 لِيُحَقِّقَ مَأْرَتَه ، وَيَبْلُغَ مُبْتَغَاهُ .

فما يوشك النَّهارُ أن ينتصف حتى يَتَخَطَّرَ القَارِبُ على  
 الماءِ ، يُناوِشُ عَيْنَى « طور أغلو أفندى » ، وقد وشَّاهُ طلاءُ

قَشِيبٌ ، وتراءت عليه للصَّيْدِ أَلْوَانٌ مِنَ الْأَدَوَاتِ  
وَالْمُعِدَّاتِ .

أما أَن لِّلذَلِكَ النُّوتَى أَن يَتَرَفَّقَ بِهِ وَيَرْتَبِي لِحَالِهِ ؟  
إِذَا أَن يَدْعُوهُ إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَن يَنْزَوِي عَنْهُ مَأْسُوفاً عَلَيْهِ .  
ويقوم بين « طُورِ أَغْلُو أَفْنَدِي » وبين نفسه ذَلِكَ الصِّرَاعُ  
الْمَأْلُوفُ .

فَمَا يَكُونُ قَابَ قَوْسَيْنِ مِنَ الصَّبَاحِ بِالرَّجُلِ أَن يَتَوَقَّفَ حَتَّى  
يُدْبِرَ عَنْهُ الْقَارِبُ نَائِياً كَأَنَّمَا يَسْتَهْزِئُ بِهِ فِي جَسَارَةٍ وَاجْتِرَاءٍ .  
وتواردت أَيامٌ ..

وَالْقَارِبُ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَصَاحِبُهُ الْأَحْذَبُ يَرُوحُ وَيَجِيءُ ، مَرِحَ  
الْأَعْطَافِ ، ضَحُوكَ السَّنِّ ، يَشْدُو بِتَرْنِيمَةٍ شَعْبِيَّةٍ يُصَلِّصُ  
صَوْتَهُ مِنْهَا بِقَوْلِهِ :

لَا بُدَّ لِلظَّامِ أَنْ يَشْرَبَ فَالصَّبِيرُ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَذْهَبَا  
فَتَتَرَسَّلُ كَلِمَاتُهَا عَلَى سَمْعِ رَبِّ الْقَصْرِ وَكَأَنَّ مَقَاطِعَهَا الْجَمْرَ  
الْمَحْمِيَّ .

(١٣)

آوَى « طُورِ أَغْلُو أَفْنَدِي » إِلَى فَرَّاشِهِ غَيْرِ هَانِيٍّ بِطَيْبِ

النَّعَاسِ ، فَصَلَبَ عودَهُ يَتَكَيُّ عَلَى حَشِيَّةٍ ، يَدْحَنُ لِفَاقَةَ تَبَغٍ ،  
تَتَقَاطَرُ عَلَيْهِ الصُّورُ وَالذِّكْرِيَّاتُ .

تلك صيفَةٌ منحوسةٌ لا بِشَرِّ فِيهَا ولا إِبْنِاسٍ .

لم تكتفِ باختطافِ حارسِ القصرِ والإِنْحَاءِ عَلَيْهِ بالمِغَارِمِ بل  
تَجَاوَزَتْهُ إِلَى صَحْبِهِ تَبَطَّئَ بِهِمْ عَنْهُ .

أَيْنَ هُم هَؤُلَاءِ الْمَعَاتِيهِ ؟

فِي الْمَتَجَرِّ وَالْمَصْنَعِ وَالْحَقْلِ يَحْتَرِقُونَ فِي الْعَمَلِ كَمَا تَحْتَرِقُ  
الشَّمْعَةُ لِتُضَيَّ لِمَنْ حَوَّلَهَا فِي بِلَاهَةٍ وَإِصْرَارٍ .

أَلَمْ يَسْتَبِقْنَ هَؤُلَاءِ الْأَغْيَاءُ أَنْ الْحَيَاةَ لَا تَطِيبُ إِلَّا بِمَدَاجٍ مِنْ  
لَهَوٍ جَمِيلٍ بِهِ تَتَجَدَّدُ الْحَيَوِيَّةُ ، وَيَتَنَعَّشُ الْفَوَادُ ، وَمَنْهُ يَسْتَمُدُّ  
الْعَزْمُ عَلَى مَكَافَحَةِ الْعَيْشِ وَمَصَاوِلَةِ الْأَيَّامِ ؟ .

أَيَّتَخَلَّوْنَ عَنْهُ لِهَذَا الْقِرْمِ الْأَحْدَبِ يُلْهَبُ رَغْبَتَهُ فِي الصَّيْدِ كَأَنَّهُ  
سَوْطُ عَذَابٍ ؟

وَفِيمَا هُوَ يَعِدُّ مَسَاوِيَّ تِلْكَ الصَّيْفَةِ النُّكْدَاءِ ، شَعَرَ بِالْحَدَرِ  
يَتَمَشَّيُ فِي أَوْصَالِهِ ، فَأَظْفَأَ السَّاهِرَةَ ، وَتَمَدَّدَ عَلَى سَرِيرِهِ  
مُسْتَرْخِي الْأَوْصَالِ ، يَسْتَدْنِي لِعَيْنَيْهِ نَاقِرَ السُّبَّاتِ .

غَيْرَ أَنَّ الْحَدَرَ الَّذِي شَعَرَهُ كَانَ كَالثُّعْلَبِ الْمَرَاوِغِ ، يَسْخَرُ مِنْهُ ،

فلم يَغْمَضْ له جفنٌ ولم يُسَالِمَهُ تفكيرٌ ، فظلَّ مُؤرِّقاً ، يتمثلُ  
قاربِ الأحذبِ ، مُحْتَنِقاً بصنوفٍ من السمك الدَّسيمِ دون أن  
يكون له فيه نصيبٌ .

رواته النومُ بعدَ حينٍ .

وإذا هو فى غمرةِ أحلامٍ يتبدَّى فيها ذلك القاربُ المُتخَمُّ  
بصيْدِ البحرِ وقد انبعثَ « طور أغلو أفندى » فى إثرِه يلاحقه  
ويطاردهُ ، والأحذبُ يضربُ بمجدافيه مُمهِّداً لقاريه سبيلَ فرارٍ ،  
فيتخلف عنه ربُّ القصرِ ، يغالبه الموجُ ، ولا من لحاقٍ .

وأصبحَ « طور أغلو أفندى » يشغُرُ بقنوطٍ ويأسٍ ، وكأن  
حياته تجمعتُ فوق رأسه غمامةٌ دكناءٌ محملةٌ بألوانِ الأسى  
والحرمانِ .

وطرَقَ مرساهُ مع الأصيلِ يستقبلُ المضيقَ بعينِ ثُبصٍ ، وامتدَّ  
به الانتظارُ ، وقاربُ الأحذبِ لا يلوحُ له ظلٌّ ، حتى أوشك  
البأسُ أن يتمكن منه .

وفى ساعةِ المغيبِ بدا القاربُ المعهودُ ، يتخَطَّرُ على  
بساطِ الماءِ ، وانبرى الأحذبُ يتدانى به من المرسى مُتكلِّفاً

الانهماك في مدَّ الشَّبَاكِ ورَمَى الشُّصُوصُ ، لا يَكْفُ عن ترنيم  
وغناء .

وطَفِقَ « طور أغلو أفندي » يراقبُهُ في تَرِيصٍ وتَوَفُّزٍ .  
وَقَطَنَ النُّوتَى لَذلكَ منه ، فعمد إلى شبكةٍ ألقى بها في اليمِّ  
يُوهِمُ النَّاطِرِينَ أَنَّ البحرَ تَجَنَّى عليه فابتلعها منه ، فتحمس  
« طور أغلو أفندي » يصيح بالرجل :  
شَبَّكَتْكَ أَيُّهَا الصَّائِدُ .

فَانْحَنَى النُّوتَى يُحَدِّقُ في الماء ، وهو يتكَلَّفُ الحسرةَ على  
الشبكة الضائعة ضارباً كَفًّا بكفٍّ ، يتحسّرُ في صوتٍ حامي  
الجَرَسِ :

جئنا نصطادُ من البحر سمكةً ، فاصطاد هو منا شَبَكَةً ...

هكذا الدَّهْرُ ... يَوْمٌ لك ويَوْمٌ عليك !

فَعَلَا « طور أغلو أفندي » بصوته يقول :

عَوْضَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا .

فجَارَ النُّوتَى :

الأرزاقُ على الله .

وما نَشِبَ أنْ ضربَ الماءَ بِمِجْدافِهِ ، وساقَ قَارِيَهُ يُلقِيْ على رَبِّ  
القصر تحيةً رداً .

(١٤)

لم يكن « طور أغلو أفندى » فى ليلته أقل ضيقاً مما كان  
البارحة ، تشابكت المُرثِيَّاتُ أمام عينيه وهو فى إغفائه تَتَقَاذَفُ  
به أودية الخَيَالِ ، كما يتقاذف اللاعبون فى الحَلَبَةِ ، بِكُرَةِ  
المطاطِ فتغدو بين الفريقين حائرة لا تَسْتَقِرُّ .

وظفر بنفسه غائصاً فى طباق الماء ، وقد تجلّى له بابٌ بلورى  
تتلاعبُ من خلفه أسرابٌ من صيد البحر ذات ألوانٍ ، فاقترَبَ  
يعالج فتحةً وقلبه يحدثُه أن يَسْطُوَ على ذلك الكنز .

وما وضع يده على مقبض الباب يديره حتى برز له حارسُ  
الكنز ، ماردٌ مائىٌ مهيبٌ ، تَتَشَعَّبُ من جَسَدِهِ اللّجيم أيدٍ  
طويلةٌ كالخراطيم .

واستباح المارد « طور أغلو أفندى » تتحوى خراطيمه  
الطوالُ على عنقه وخَصْرِهِ وساعديه ، تَعْتَصِرُهُ اغْتِصَاراً ،  
فتراخت أوصاله ، وقَتَرَ عِزُّهُ ، فاستسلم ، فى غير مُقاوَمَةٍ ،  
إلى قَدْرِهِ المحتوم ، وقد اغتنقه الماردُ يهوى به إلى التراب ، فإذا  
بأنفاسه تَتَقَطَّعُ ، ونبضات قلبه تتخاذلُ ، يسرى فى كِيَانِهِ كُلِّهِ



تَجَمُّدٌ وانْهِيارٌ .

واستجمع الرجلُ قُوَّتَه ، يحملُ صَوْتَه على صياحٍ ،  
طالباً النُّجْدَةَ ، فاحتبسَ صَوْتَه بالماء المتدفِّقِ من فمه المكروبِ ،  
وقماوت الصُّراخِ على شفثيه ، فلم يتنفس بحرف .

وفى اللحظة الحاسمة ، حين أوشكتُ الحياةُ تُودِّعُه ، خَفُّ  
النوتى<sup>١</sup> إلى نجدته ، يهاجمُ الماردَ ويحاريه ، فى جراءة واستبسال ،  
فسدَّدَ إليه من سلاحه المشحوذ ، ضربةً محكمةً عاجلته فى  
مقتلٍ ، فانْبَثَقَتْ دماؤه من بين عينيه ، تَصْبَعُ الماءَ بلونها  
القرمُزى ، ومن ثَمَّ خمدتْ أنفاسُه ، وتداعتْ خراطيمُه ، فتحرر  
« طور أغلو أفندى » من سَطَوْتِه لِيُجَابَه فى الأعماقِ معركةَ  
الغرقِ ، والنوتى<sup>٢</sup> أخذَ بيده يُصارِعُ بطنَ الماءِ ، يُعِينُه على خلاصِ  
حتى لَفَظْتَه عنها أحشاءُ البحرِ ، فطفا على الموجِ ، يلتقى  
بالهواءِ فى عِناقٍ جَيَّاشٍ ، يسلكُ مع السالكين سبيلَه فى الحياة  
من جَدِيدٍ ، ناجياً ، بفضلِ النُوتى<sup>٣</sup> الأحدثِ من هُلكِ مُحَقَّقٍ ،  
ومَوْتٍ وشيكٍ .

وساعةً ضمَّه المرسى وقتَ الأصيل ، كانت أصداءُ ذلك الحُلُمِ  
الكئيبِ ما فتنَتْ تتنازعُ فى رأسه ، فلبث يتحَيَّنُ قدومَ القاربِ ،  
وظُهُورَ النُوتى<sup>٤</sup> ، مشبُوبَ الحنينِ .

ولم يَطلِ انتظارهُ إذْ ظهرَ القاربُ يتغايَدُ بين أحضانِ الموجِ ،

فتهلكت أسارىره ، وصاح مرجباً بمقدّم النوتى الأحذب بطلُ  
الأسس فى مُعتركِ الرؤى والأحلام .

وتراجبت على فمه ابتسامه وهو ينادى النوتى مؤمناً بيده :

ماذا صنع الله بك ؟ ... لعلك ظفرت من صيد اليوم  
بالعوض بما ضاع من شباك الباردة ؟.

فتوسط الأحذب قاربه مُشرئباً يُجيب ، وما زالت بينه وبين  
القصر أمواج :

كان وجهك على خيرا ويُمنا وبركة ... انظر ... توضح .

وجذب من بطن القارب سمكة تملأ العين ، ورفع بها يده ،  
فالتمعت فى خيوط الشمس كأنها عروس البحر تشتمل بقوس  
قزح ثوباً ، تُوشيه زهوة الألوان .

وهش « طور أغلو أفندى » لمراى تلك السمكة الخلابه  
وزعق يقول :

من أين لك هذه الدرّة الفريدة ؟

فأجاب الأحذب غامزاً بعينه ، وهو يلقى السمكة فى قاربه ،  
ويشير إلى عرض المضيق :

من ههنا.

فانبعث « طور أغلو أفندى » يستوضح جهير الجرس  
والحماس أخذ به :

من هناك ؟

- نعم ... البحر حافل بالطيبات !

وتدافع القارب إلى مرسى القصر ، وتهادى « طور أغلو  
أفندى » على الدرج العريض ، وامتد بصره إلى بطن القارب ،  
يرى عينيه ، بما احتضنه من سمك ، ويتلهى بما تسليح به من  
جهاز وعتاد ، مهتز الاعطاف كما لو كان طفلاً شهقت أنظاره  
بلعبة طريفة لم يألّفها من قبل .

وظلت عيناه لا تبرحان القارب ، يقلب السمك فى نشوة ،  
يعبث بمعدات القنص فى فرحة ، مطبقاً عليه صمت .

وقطع النوتى السكون ، يسأل رب القصر :

ألم يجرب السيد حظّه مع البحر بعد ؟

وتعاطم « طور أغلو أفندى » يقول ، وما انثك يزعى  
القارب وما حوى ، لا مع العين :

أما في هذه الصيفة فلا ... مشاغلي كثيرة ... تأبى على  
فسحة ساعة أو بضعة الساعة أضيعها في لهو .

- أو في البحر لهو ؟ ... البحر مشغلة ... إنه يُغدق  
المغانم والأرزاق ... لماذا تزهّد في كرمه ؟

وقطن النوتى إلى ربّ القصر ، وما يعتلج في نفسه ،  
فانكفاً يقلب السمك بين يديه يشيد به :

ما أجمله ... ما ألقنه !

وأسلم « طور أغلو أفندى » إحدى رجليه إلى جوار  
المجداف ، ومالاً بثقله يُشبع عينيه ، فغمز النوتى مجدافه غمزة  
خفية أثارت القارب ، فما هى إلا أن سقط ربّ القصر طريح  
الألواح كأنه سمكة مصيدة تختلج بين الشباك .

وأسرع النوتى إليه يتعهده ، وهو يفتعل الدهشة والاعتذار ،  
ويسوى للضيف العظيم مكان الشرف قائلاً :

الحمد لله ... لا بأس .

وتحامل « طور أغلو أفندى » على نفسه ، يتجلد في شموخ  
وكبرياء ، وهو يقتعد من القارب عرشه الجديد .

وانحنى النوتى على وكبة ضيفه يدلّها ، فأغمض « طور

أغلو أفندى « جفنيه وكأنه تائه فى آلامه لا يُحسُّ بما يجرى  
حوله من حركة ، ولا يدرى إلى أى وجهةٍ هو مَسوقٌ .  
وحالت بين القصر وسيده أمواجٌ وأمواجٌ .

(١٥)

وعندما فاء « طور أغلو أفندى » إلى نفسه ، ألقى القارب  
فى عرض المَضِيقِ ، فاختلج يستوحى النوتى جَلِيَّةُ الأمر ،  
وكأنما افتقد الذاكرة ، لا يدرى فى غفلةٍ وعيهِ ما الذى يَحْدُثُ  
له :

أين نحن ... ؟ أفى البحر نسير ... ؟ ألسْتُ على مرسى  
القصر ماثلاً أصرْتُ شواغلى ... ؟ من أحلنى ذلك القاربَ  
العجيبَ ... ؟ ماذا صنعتُ بى ... ؟

فطأطأ الأحذبُ هامته ، وغمغم فى تخايلٍ موسياً رب  
القصر:

لم أصنع إلا كلُّ خير ... ظننتُ أن سيدى فى حاجةٍ إلى نزهةٍ  
بحرية ، تخفُّفٌ وطأة السقطة وترقُّةٌ عنه .

وتنفَّخَ « طور أغلو أفندى » يقول فى تشامخ ، يومُ النوتى  
برشش العون :

لستُ في حاجةٍ إلى تنزهٍ وترفيهٍ ... شواغلي كثيرةٌ ... عُدْ  
بي من حيثُ صَدَرَتْ ... وقتيَ بميزانِ كالذهب لا يحتملُ الصَّبَا  
واللَّهْر .

وجاز بهما ، أثناء ذلك الحوار ، قاربُ ماضٍ في مُزْدَحَمِ الماءِ ،  
مجهز للصيد على أكمل وجه ، فقال الأحذب على الفور :  
رجالُ ماضون إلى الصيد ... أنتعقبُهُم ... ؟

ودون أن يظفر من « طور أغلو أفندي » بجواب الرضا ،  
حرك مجدافيه يُلْهَبُ بهما متْنِ الماء فانساق القاربُ يتأرجح ،  
وكانه راقص يتمايل من طرب على لحن الماء ، تنشده حَفَقَات  
الموج .

وأشرقَ الحظُّ لـ « طور أغلو أفندي » ، وأكرمَ البحرُ وفادته ،  
فسخا له بالطيِّبِ من ذخائره ، فانتعشتُ روحُ الرجل ، وقد  
تناسى بما تظاهر به من ألمٍ في ساقه وأمسك بالخيوط يطوحُ بها  
يُمَنَّةً ويسرَّةً في احتياجٍ وابتهاجٍ .

وعاد القاربُ أدراجه إلى مرسى القصر ، وأخذ النوتيُّ بيد  
« طور أغلو أفندي » في ترفُّقٍ يُعِينُهُ على النزول ، وهو يقول  
في بَسْمَةِ ملقٍ :

على رَيْبِكَ سَيِّدَى ... لا تثنِ رُكْبَتَكَ .

فلم يسع « طور أغلو أفندى » إلا أن ظلع فى مِشْبَتِهِ ،  
يُكْسِبُ وَجْهَهُ أَمَارَاتُ التَّجَلُّدِ والصَّبْرِ .  
واحْتَوَاهُ المَرْسَى .

وانبثق صوت النوتى يقول :

السمكُ سَيِّدَى ... ماذا أنا صانعُ به ؟

ولم يمهل الأحدثُ « طور أغلو أفندى » حتى يجيب ، إنما  
واصل حديثه يقول : سأبيعه لحسابك يا سَيِّدَى .  
وَتَرَفَّعَ « طور أغلو أفندى » عن الإجابة مُتَصَنِّعاً التَّمَنُّعَ ،  
فلاحقه الأحدثُ بقوله :

سَيَّعِينَتْنَا الثَّمَنُ على شراء شباكٍ للصَّيدِ وأدواتٍ .

فَهَزَّ رَبُّ القصرِ رأسَهُ ، علامة الاستجابة والاستِحْسَانِ ، دون  
أن ينبسَ ، ثم يَمَّ قَصْرَهُ يترْفَعُ فى سيره ، مُشْرِقَ الجَبِينِ ، متورِّدُ  
الوجنتين ، وتوَحَّى الأحدثُ ، مشْرِيبُ العنقِ ، متعالى الصدرِ ،  
يُنْفِذُ أمره فى سطوة الأباطرة العُتَاهِ :

موعدُنَا غَدًا ... قُبَيْلَ الغروب ... لا تتخلفَ ...

واحتواه القصر يُغَيِّبُهُ عَنْ الْأَنْظَارِ .

(١٦)

سُرَّ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدَى » بِصَيْدِهِ فَقَدْ ذَرَّ عَلَيْهِ رِيحاً جَعَلَ مِنْهُ  
مَالِكاً لَشَبَاكِ وَخِيوطٍ وَشُصُوصٍ ، غَنَمَهَا فِي يُسْرِ دُونَ أَنْ تَعْبَثَ  
يَدُهُ بِمَصُونِ مَالِهِ .

وَتَوَثَّقَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحْدَبِ عَلَى تَرَادُفِ الْأَيَّامِ وَشَانِجُ أَلْفَةٍ  
وَتَرَاطُطٍ .

وَتَلَازَمَ الرِّجْلَانِ تَلَازُمَ الظِّلِّ وَصَاحِبِهِ ، وَأُظْهِرَ الْأَحْدَبُ مِنْ  
حُسْنِ التَّدْبِيرِ وَبِرَاعَةِ الْحِيلَةِ ، مَا أَذْهَلَ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدَى »  
وَجَعَلَهُ يَرْكُنُ إِلَى رَأْيِهِ وَيَعْوَلُ عَلَى مَشُورَتِهِ .

فَمَا تَنَحَدَرُ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ حَتَّى يَحْمِلَهُمَا الْقَارِبُ  
إِلَى عَرْضِ الْمَضِيقِ يَتَعَقَّبَانِ السَّمَكَ الشَّرُودَ ، صَغَرَ حَجْمُهُ أَوْ كَبُرَ ،  
فَإِنَّهُ صَيْدٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَكَثِيراً مَا كَانَ الْبَحْرُ يَنْسُطُ لِهَمَا كَفَّهُ وَیَجُودُ بِوَدَائِعِهِ ، غَيْرَ  
أَنَّهُ كَالْغَانِيَةِ مَتَقَلِّبٌ لِعُوبٍ لَا يُؤْمَنُ لَهُ جَانِبٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُ حَالٌ :  
حِينَئِذٍ يُغْدِقُ وَحِيناً يَقْبِضُ يَدَهُ وَيَشِيعُ .

وَالْيَوْمَ عِنْدَمَا قَصَدَهُ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدَى » وَصَاحِبُهُ ، تَأَبَّى



عليهما وتمنّع ، فبقى القارب حائراً بين صَفَتَي المضيق ، وليس له  
إلى الصيد من سبيل .

إنه تائه على وجه الماء ، تارك خلفه خطاً رفيعاً من مياه  
مُزْدَدة ، يتوسطه ذلك النوتى الأحذب ، مُحْتَبِسَ الجَسَدِ فى سِتْرَةٍ  
زرقاء ، واستوت على رأسه قَلَنْسُوة غبراء ، على حين تنفّخت  
عضلاتُ ساعديه ، تتحوى عليهما عُرُوقُ نافرةً وهو يهوى على  
المجداف يُزجى به الماء ، وفى عينيه بريقٌ تتماثل فيه تباشير  
ثراءٍ موفور .

وانتَبَذَ « طور أغلوافندى » ذيلَ القارب بوجهه المظهم  
وكرشه المنبعجة ، توسّدت فخذه .

وانهمك فى إعداد أدواته ، وانثنى بجِرمه المتكتّل على  
جانب القارب فى جُهدٍ ، يهينُ شرائح الطعم يعمرُ بها خُيوطه ،  
ويلقيها عوداً على بدء ، عسى أن يواتيه البحرُ بما يفئ على  
نفسه الرضا والارتياح .

وشارفَ القاربُ « قلعة الحصار » شامخة السور ، عالية  
الشُرَفات وقد تسنّمت ربوةً على حضنى المضيق كانت فى حَقَب  
الزمن عينُ السلطان الساهرة تُردُّ عنه هجماتِ الغزاة ، وتحفر من  
اليمّ قبوراً لسفائن المعتدين .

وما فتئ القارب يطوفُ بصاحبيه ، ورغوات الماء من حوله  
يُدغِدغ بعضها بعضا ، فتتشابك في معايشة ومناوشة حتى  
يفنى بعضها في بعض كأنها رؤوس صغار طافية تتضارب في  
نَزَقٍ .

ويتبدى في الفضاء سربٌ من طير البحر يشبه الحمام  
البيضاء ، فاستبشر « طور أغلأفندي » بطلعة الطير ، ونشط  
يراقبه مُحْصِياً عليه الحركة ، إن حاد يئنه تبعه وإن مال يسره  
اقتفاه .

والأحدب بين هذا وذاك ، يمتثل ، على مضض ، لما يمليه  
« طور أغلأفندي » من توجيه وإرشاد يحاور الطير في مسراه  
المتقلب ، تائها على وجه الماء ، كذلك الموج الزاخر ، دائبُ  
الحركة موصول السعى .

وساعة أَسَف السرب على وجه الماء ، يتوسدُ الموجات ، طفقَ  
كل طائر يغمس منقاره المعقوف في طيات الماء ، يتقاضى  
البحر قوته ، وتهلّل وجهه « طور أغلأفندي » واضطرب يقول  
للنوتى فى نشوة تشبه نشوة الانتصار :

قطيع من السمك ... قف ... لا حراك .

فتخلّى النوتى عن الجذف ، واسترخى فى جلسته ، تاركاً  
للقارب العنان ، وقد حسر قلنسوته عن رأسه قليلاً ، وسماً  
بسيابته إلى جبهته ، فتطاير العرق فى الهواء ثم أخذ إلى لفافة  
تبغ يدها فى تلذذ واستمراء .

لم يخب ظن « طور أغلو أفندى » إذ أنبعث طائر من السرب  
يدف بجناحيه مصعداً فى أجواز الفضاء ، ظافراً بسمكة تدلت  
من منقاره ، تصارع الموت فى يأس ، فلحق به سائر الفوج  
ينازعه ما غنم .

وعجل « طور أغلو أفندى » رامياً بالخيط فى البحر دفعة  
واحدة ، وتهياً يعد نفسه للمعركة ، فى تيمن ووئوق .

وتعالى فى الفضاء أزيز يحاكى زُمجرة غاضب ، فتلفت  
« طور أغلو أفندى » يتفقد مصدر الصُخب ، فلاح لناظره ،  
زورق بخارى يجرى على اليم كخطف البرق ، ومن حوله يجن  
جنون الماء فى عريدة من موجات تُرغى وتزيد .

وتعثر قارب الصيد ، وعلا به الموج وهبط ، فاختل توازن  
« طور أغلو أفندى » واضطربت كرشه على فخذه كأنها قريبة  
تتمخض ، فسارع ينشب أظافره فى عوارض القارب يتماسك  
ويتوازن ، وكست سحنته غيرة الغضب ، عندما أصابه رشاش

يتطاير من جانب الزورق الجسور ساعياً سعيه ، يجلدُ في قسوةٍ  
وجهَ البحر ، لا يتهيبُ تدافعَ الموج .

فَعَمَّغَمَ « طور أغلو أفندى » فى جَفْوَةٍ ، وهو يمسحُ جبينه  
النَّدَى :

اختراعُ سمحٍ سخيْفُ ... دوىٌ لا ينقطع ... وهديرٌ يشبه  
هديرَ مخبُول .

وعَقَبَ النوتَى على الفور :

الحقُّ معك يا سيِّدى ... إلا أنه مفيدٌ فى نفس الوقت .  
وزَمَجَرَ رَبُّ القصر :

كيف ... ؟

- ألا تَفْطِنُ وأنت يا سيِّدى الأَلَمِيعِ الأريب ، إن هو سُخَّرُ  
للصيد ، نالنا غَنْمٌ كبيرٌ ؟

- لا أفهم ... أوضَح .

- يا سيِّدى إن سُخَّرَ هذا الزورق للصيد هداًنا ، فى طرفة  
عين، إلى مواطنِ السمك كأنه فى سرعته صقراً أو عُقابٌ .

فلم يَحِرْ « طور أغلو أفندى » من جواب ، وجذب الخيوط  
يستبدل بالطَّعمِ غيرَه يزمرُّ مُحنَقاً .

وأمسك الأحذب عن الكلام تتفانزُ عيناه إلى الزورق ، ويظلُّ  
يلاحق طيفه الغابر ، موشكاً أن يطفّر من الماء من غرور  
وخيلاء ، فتترسّم على معارفه بشاشة الرّضا والاستحسان .

## (١٧)

وانسرح الأحذبُ تبرّقُ في رأسه أطماعُ فساح ، تاركا « طور  
أغلو أفندى » يلعب بخيوطه كصبي يتلهّى في مراح  
وانبساط :

آه لو أمتلكُ مثلَ هذا الزورق ، لأخضع البحرَ عرضاً وطولاً ،  
ولغالبَ السمكَ يجعله رهنَ شباكه لا يعزُّ عليه منه شيء .

ما هي إلا بضعة مفاتيح يعركها في يسرٍ وإذا بالنسيطة  
تنساب في أوصالِ الزورق ، فلا يملك إلا أن يندفع في كل  
صوبٍ وحذب يُبارى الموج ، ويطوى صفحة البحر كبساط الريح  
لا يعوقه في مسراه سدّ ، وما قيادته إلا إطارٌ رشيق ، حرّكته  
طبيعة لا يتطلب علاجاً جهداً ولا عناءً ، قادر عليها طفل .

آه لو ابتسمَ له الحظّ ليُصْبِحَنَّ مالكاً شبيه الجهازِ الجسورِ  
يَسْتَوِي به على عرش الماء ، لكانه في دولة الصيد المتراخبة  
صاحبٌ تاجٍ وصولجان .

وهل تُجيبُ السماءُ أمنيةً من هو مثله : نوتى رقيقُ الحالِ ،  
خاوى الوفاض ، مهيبُ الجناح ؟ ولكن لا يأس مع الحياة .  
فليتطلع إلى السماء ، يطرق بابها ، معلياً صوته فى دعاءٍ  
ورجاءٍ .

## ( ١٨ )

مر بـ « طور أغلو أفندى » يومٌ شاقٌ اصطلى فيه بلجاجة  
قاصديه ، إذ توافد عليه مع الصباح الباكر جمعٌ منهم كبيرٌ  
يساومُهُ على حراسة القصر .

فقضى يومه يماكس ويحاور ، طوراً يعلى صوته ، وطوراً  
يخفّضه دون أن يقطع فى أمر الحارس برأى يستنيمُ له ويطمئنُ  
به .

وساعة التقى الأحذبُ برُبِّ القصر وقتَ الأصيل على مألوف  
عادته ، ألفاه مستوفزَ الأعصابِ جهَمَ الحديثِ ، فلم يشأ أن  
يستوضح منه ما يشغله ، وتركه وشأنه حتى انساب بهما  
القارب تلاطفه أمواجُ خفافٍ ، وبصافحه نسيمٌ وادع ندى .

وأحسنَ « طور أغلو أفندى » بهبةً النسيم تتوَدَدُ إليه ،  
وتتمسحُ بوجهه المحتقنِ لينةً رحيّةً ، كأنها على خديه لثماتٌ

حبيب ، قَدَدَتْ مِنْهُ زَفَرَةٌ كَأَنَّهُ يَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ كَرْبِ النَّهَارِ ، ثُمَّ  
شَخَّصَ إِلَى صَاحِبِهِ الْأَحْدَبِ يَشْكُو لَهُ أَمْرَهُ قَائِلًا :

يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ كَثِيبٍ ؟ ! ... كَثُرَ نِقَاشُهُ وَاحْتَدَّ جَدَكُهُ حَوْلَ  
حِرَاسَةِ الْقَصْرِ ... كُلُّهُمْ طَامِعُونَ حَسَدُهُ ... لَا هُمْ لَهُمْ إِلَّا الْغَلْبَةُ  
وَالْفُوزَ ... لَقَدْ خَرِبْتَ الذَّمَّ وَجَدْتَ الْقُلُوبَ  
فَطَاطَأَ النَّوْتَى يُهَمِّهِمْ عَلَى رِيسِل :

حَقًّا لَقَدْ تَنَاقَصَ الْخَيْرُ وَفَسَدَ النَّاسُ .

وَتَابِعَ « طُورِ أَعْلُو أَفْنَدِي » حَدِيثَهُ فِي صَوْتٍ مَخْفُوضٍ :  
إِنِّي فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي ، لَا أَدْرِي كَيْفَ أَقْطَعُ بِرَأْيِي فِي شَأْنِ  
الْحَارِسِ الْجَدِيدِ .

وَأَجَابَ النَّوْتَى يَكْتُمُ سروره :

وَلَكِ الْعَذْرُ فِي أَنْ تَتَحَيَّرَ وَتَنْتَهَبَ !

فَاطْرُقْ رَبُّ الْقَصْرِ فِي صَمْتٍ .

وَأُرْدَفَ الْأَحْدَبَ يُحَذِّرُهُ ، وَيُبَصِّرُهُ بِعَوَاقِبِ التَّسْرِعِ قَائِلًا :

الْقَصْرُ يَحْتَوِي عَلَى تَخَفٍ غَالِيَةٍ وَالْطَّافِ ثَمَانٍ ... تُحْتَمُّ دَقَّةُ  
التَّخْيِيرِ ، وَسَلَامَةُ التَّقْدِيرِ .

وتنهّد « طور أغلو أفندى » مُجمّماً :

ثقتى بالناس قليلة ...

الحقُّ معك .

لقد خبرت فيهم الطمع والتغالى ... إنهم شرهون لا تُملأ لهم  
عيون .

فقال النوتى يتملق ربّ القصر :

ماذا يبيغون ؟ ألا يكفيهم من نعيم الحياة مأكلاً طيباً  
ومسكناً كريماً ؟ !

وحملق فيه « طور أغلو أفندى » ورن صوته مهتاجاً ، ویده  
تُساعدہ بالإشارة على توضيح ما يُلَفِظُ :

يَبِغُونُ المال ... من حرام أو حلال !

- وأى خَيرٍ فى المال ... أصدُقُكَ القولَ يا سَيِّدِى ... أهلُ  
هذه القرية منهومون لا يشبعون ... يجب أن تتشدد وتتحرز  
... لا تَلِنِ ...

لا تُولِ ثقتك إلا من هو أهلُ لها .

- صدقت ... صدقت ...



وضرب « طور أوغلو أفندى » بأنظاره فى عرض المضيق ،  
وأخذ يقتلُ شاربِه ،وَيَتَمَصِّصُ شفتيه ، وحينما يقرضُ أظفاره ،  
كان إلهاماً هبّط عليه ، يخطُّ له المنهج الذى يسلكُ .

وبقى على هذا النحو حتى صافحه صوت الأحذب يقول هَبْنِ  
النُّبْرَة :

تَرَسَّلْتُ على الأسماع فى شأن الحراسة ، والعُهْدَة على  
الراوى ، ألوانٌ من شائعاتٍ وشتاتٌ من حديث .

فقاطعه « طور أوغلو أفندى » يحدُّ فيه النظر وقد تملَّكتَه  
شواغلُ التفكير ، يستوضح فى فضول :

ما الذى نما إلى علمك من ثُرْتُرَةِ الأحاديث ؟ ... وماذا  
تخوضُ فيه الألسن من لغو ؟

فتمنَّع الأحذبُ يقول :

لا تُخرِجنى يا سيِّدى ... إنها ضَرْبٌ من التخمين ليس أكثر .

واندفع « طور أوغلو أفندى » كالقذيفة يحثُّ النوتى بقوله :

بل فأتِ بكل ما عندك من شائعاتٍ .

فأُحْجِمَ الأحذب ، وتقاصر عن الإجابة ، إلا أن « طور أوغلو  
أفندى » ، حاصره فى لُجاجة ، فتلفظُ النوتى يقول :

إن صح ظنُّ الناس فالحارسُ السابقُ رحمه الله وطيبُ ثراه ،  
كانَ يَتَمَتَّعُ بِمِيزَاتٍ عَظِيمَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

واستوقفه « طور أغلو أفندى » يسأله :

أهذا كل ما وعيتَ من حديث ؟

- البته ... يا سيدى .

- إذن فعجِّلْ بالقول .

- تواترت ، بين أهل القرية ، أنك يا سيدى كنت تتساهل  
مع حارسك وتكارمه ... حتى أَصْبَحَتْ ثمار الحديقة ، كما  
يَزْعُمُونَ، غُثْمًا لَا يُحَاسِبُ عَلَيْهِ ... وتدفئة الشتاء نَقَقْتُهَا عَلَيْكَ  
... يَغْرَمُ فِيهَا سَيِّدِي مَا يَغْرَمُ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ ... وحظيرةُ  
القواربِ فيها لِمُرَكِّبِهِ نَصِيبٌ وَحَظٌّ.. وأن كل ذلك كان يعود  
عليه بريح كبير.. وطلع صوت « طور أغلو أفندى » من صمته  
يقول:

أهذا ما يزعم القوم ... ؟

فازدرد الأحدثُ ريقه يُغْمِغِمُ :

هذا طَرَفٌ مِمَّا يَتَدَاوَلُهُ الْقَوْمُ مِنْ أَقَاوِيلَ فِي الْحَارِسِ وَالْحِرَاسَةِ .

- أَعِنْدَكَ مِنْ مَزِيدٍ ... ؟

- لا يا سيدى ... ولكن .
- ماذا بعد ذلك من أقاويل ... ؟
- ثُمَّ أمرُهم وجب عليك الوقوف عليه .
- أوضح ! ...
- أهلُ القرية يتكهنون بمستقبل الحارس الجديد .
- وبم يتكهنون ... ؟
- يتساءلون عن ذلك النعيم ... هل يفوز به خليفة الراحل  
المحظوظ ؟
- فأوماً « طور أغلو أفندى » دون أن يُخرج من لفظ ، خَشِيَّة  
أن ينزلق لسانه بقول ، يُؤخذ حُجَّةً عليه إذا أحب أن ينتقص  
بعض هذه الميزات من خليفة الحارس القديم .
- وأكمل النوتى كأنه يترنم أو يشدو :
- هذا كثير ... إنه سخاء ، والله منك كبير .
- فتعاضم « طور أغلو أفندى » وتنفخ ، ثم رمى بشباكه إلى  
البحر ، يستمرئ ثناء النوتى فى تقاخر وزهو .

(١٩)

وارتد القارب إلى مرسى القصر .

أما « طور أغلو أفندى » فقد حاصره التفكير وضيق عليه ،  
تتبدى منه حركات مهوشة ، فيهتز القارب ، ويترنح تحت ثقل  
ذلك الجرم الممتلىء البدن .

وطمح النوتى بنظرة إلى رب القصر ينبهه فى أدب وملاطفة  
إلى أن القارب يتطلب المعونة على أن يستقيم سيره ، فالمضيق  
يُفسح صدره للبوارج والسفن تعبره مشيرةً دفعاتٍ من موج  
رجراج .

فما تلاقت نظراتهما واشتبكت حتى أصبح « طور أغلو أفندى »  
غير قادر على كتمان سره ، وتدقق يصرح النوتى على عجل  
كأنه يخشى أن تنحاش العبارات بين شذقيه :  
اسمع ... لقد اخترتك حارساً للقصر .

قال قوله هذا ، وسكت يقرض أظفاره لا يحسن الترابط .  
وارتج على الأحذب ، وقد باغتته المفاجأة ، فظل فاغراً فاه ،  
يرنو إلى « طور أغلو أفندى » فى تباله .  
فيهتز رب القصر يقول : الاختيار موقفٌ إن شاء الله .  
ويطرق لحظات ثم يستأنف حديثه :

اخترتك لأننى عهدت فىك الأمانة والصدق والاخلاص .

واستردُّ الأحَدبُ أنفاسَه ، وتحرَّكتْ شفتاهُ بقوله وهما لا  
تَضْبِطَانِ مَخارجَ الألفاظِ :

إنه لشرف عظيم أن أكون في خدمتك يا سيِّدى ... ولكنك  
باغتني بهذا الاختيار ... ألا تدعُ لى مُهلَّة تفكير ؟  
- لا حاجة لك بالتفكير .

- لا يخفى عليك سيِّدى أن الحراسة أمانة وستقتضى أن  
أترك الصيد .. مهنتى التى أعولُ عليها وأتکسب منها  
العيش.

- لك أبناء فيما علمت ... سيحلُّون مكانك فى الحراسة  
ريثمًا تعود من صيدك .

- لا أثقُ إلا بنفسى ... دَعْنى سيِّدى أترؤى فى الأمر .  
- لا تنس أن تَضَعَ فى ميزانك ثِقَتى بك ، وتعوِّلِ عليك  
... أمامك خمسُ دقائق ، لتَقْطَعْ برأى .  
- أمهلنى إلى غدٍ .

- ولم التَّسْوِيفُ ...؟ خيرُ البرِّ عاجلهُ ، الشروطُ معروفةُ ،  
متَّفَقٌ عليها .

وأحدُّ الأحَدبِ النظرَ إلى « طور أغلر أفندى » يَهْمِهِم :

- الشروط ...؟

- أنسيت ؟

- لا ... ولكن ...

وسارع « طور أغلو أفندي » يُعَدِّدُ الشروط ، يُخَصِّبُهَا عَلَى أَصَابِعِهِ :

وَقُودُ التَّدْفِئَةِ فِي الشِّتَاءِ عَلَى نَفْقَتِي ... حَظِيرَةُ الْقَوَارِبِ  
مَبَاحَةُ لِقَارِيكَ ... وَثِمَارُ الْحَدِيقَةِ لَكَ فِيهَا حَظٌّ وَقَدْرٌ .

وَتَهْدِجُ صَوْتِ الْأَحْدَبِ وَهُوَ يُغْمِّمُ فِي مَسْكَنَةِ مَتَظَاهِرٍ  
بِالتَّعَجُّبِ :

هَذَا سَخَاءٌ مِنْكَ عَظِيمٌ ...

- إِذَا اتَّفَقْنَا .

وَمَدُّ « طُورِ أَغْلُو أَفَنْدِي » يَدَهُ إِلَى النُّوتِيِّ ، فَسَلَّ الْأَحْدَبُ  
يَدَيْهِ مِنَ الْمَجْدَافِ ، وَأَقْبَلَ يُمَسِّكُ بِكَفِّ سَيِّدِهِ ، وَيَشُدُّ عَلَيْهَا  
قَائِلًا فِي تَأْدِبٍ بَالِغٍ :

لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَكَ ... أَوْ أَعْصِي لَكَ مَطْلَبًا ... سَتَجِدُنِي يَا  
سَيِّدِي فِي خِدْمَتِكَ وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ كَبِيرٌ ... وَإِنِّي لَفَخُورٌ بِمَا  
أَوْلَيْتُمُونِي مِنْ ثِقَةٍ غَالِيَةٍ ، أَبَاهِي بِهَا وَأَعْتَزُّ .

وَكَانَ الْقَارِبُ قَدْ شَارَفَ مَرَسَى الْقَصْرِ ، فَصَدَرَ عَنْهُ « طُورُ  
أَغْلُو أَفَنْدِي » تَخَفُّهُ بِهَ خَطَاةٍ وَقَدْ انْزَاحَ عَنْ كَاهِلِهِ عَبٌّ ثَقِيلٌ

أما النوتى فُفساق قاريه ، يتبعُ من شفتيه صفيْر يحاكى فى  
نغمه شدو الناي الطروب .

وافترق الرجلان تتلاً فى عين كل منهما آمالُ رطاب .

( ٢٠ )

تربع النوتى على عرش الجراسة ، ودانت له دولة « طور  
أغلو أفندى » فأصبح بين غمضة عين وانتباهتها جليسا أنيسا  
لرب القصر ، مسموع الكلمة مقبول المشورة ، فى كل ما يعرض  
للقصر من شئون .

لا يتخلف عن مصاحبة رب القصر ، ولا يأنف عملاً يؤمر به ،  
ومن ثم أنفتل يُجهد فكره ، ويُعمل عقله فى كل ما يوقر له .  
« طور أغلو أفندى » حياة الدعة والاطمئنان تراوده نفسه حيناً  
بعد حين أن يغزو الرجل من جميع أقطاره حتى يتمكن منه  
ويتسلط عليه .

واتفق أن كان « طور أغلو أفندى » خالياً إلى مرساه ، ذات  
أصيل ، يشغل نفسه بالتحدث إلى نوتيه ساعة مرق أمامهم  
زورق بخارى يعلو هديره ، ويهتز البحر لذنبه .

فانبعث رب القصر يتابعه بعينه وقد اشتبكت أنظاره به ،  
ينفرج فمه فى ابتسامة تنم عن إعجاب خفي .

وطالع الأحذبُ الإشرافُ ، تُرَصَّعُ جبينُ سيده ، فَتَنْحَنِّجَ يَقُولُ ،  
ناكِسَ الرأسِ يتلاعب بأزرارِ سترته :

انظر إلى الزورق سيدي ... إنه سريع والغنمُ به مكفولٌ .  
يمينا أن « طور أغلو أفندى » سِئَمَ قاربِ الأحذبِ الذى  
يتحركُ فى خطواتِ السلحفاةِ .  
أتى لتلك السلحفاة المتباطئة أن تنيله بُغْيَتَهُ ؟

وسرعان ما مَسَّتْ كلماتُ الأحذبِ قلبَ « طور أغلو أفندى »  
لكنه تراعى كأن الأمر لا يَعْنِيهِ فى قليلٍ أو كثيرٍ قائلاً :  
مهما يكن من سرعة ذلك الزورق ، فإن السمك يتهيَّبُهُ وَيَقْرُ  
منه .

- السمكُ غِرُّ أبله ... التَّمْوِيَةُ عليه يسير .

- إنه يخشى الأزيزَ والدَّوِيَّ .

- فى استطاعتنا أن نُروِّضَ ذلك الزورقَ البخارى ونجعلَ منه  
حَمَلاً وديعاً يلتف حوله السمك ويأنسُ إليه .

لم يعقب « طور أغلو أفندى » على هذا القول ، فاستأنف  
الأحذبُ :

لا أكذبُكَ سيدي أن ثمنه كبير ... غير أن العقلَ المدبِّرَ فى  
مقدوره أن يُعوِّضَ الثمنَ بما يوفِّره الزورقُ من كَسْبٍ .



فَدَاكَاهُ رَبُّ الْقَصْرِ يُرْعِيهِ أَذُنُهُ ، وَقَدْ تَسَرَّيْتُ كَلِمَاتُ الْأَحْدَبِ  
فِي أَقْطَارِ عَقْلِهِ الْخَصِيبِ ، فَهَبْ بَيْنَ ضُلُوعِهِ شَحْهُ يَغْرِيه  
بِالِاسْتِمَاعِ وَالتَّذَبُّرِ :

الْأَمْرَ هَيْنَ ... سَيِّدِي يَشْتَرِي الزُّورِقَ ... وَأَنَا هُنَا لِأَسْهَرِ  
عَلَى الصَّيْدِ ... إِنْ أَجْدَبَ مَكَانَ تَطَرَّقْتُ إِلَى غَيْرِهِ ... لَا بَدَّ أَنْ  
نَقُوزَ بِصَيْدٍ عَظِيمٍ ... وَأَمَامَنَا بَعْدَ ذَلِكَ السُّوقِ ... أَبَادُهَا  
بِالسُّمُكِ الْمَصِيدِ .

وَتَقَلَّلَ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » فِي مَجْلِسِهِ ، يَتِمَائِلُ يُمْنَةً  
وَيُسْرَةً وَكَأَنَّمَا هُوَ فِي مَهَبِّ نَغْمٍ شَجِيٍّ ، وَسَطَعَتْ عَلَى ثَغْرِهِ  
ابْتِسَامَةٌ رَحِيْبَةٌ وَهُوَ يَنْطَلِقُ بِقَوْلِهِ :

شَيْءٌ جَمِيلٌ !

وَأَظْلَهُ الصَّمْتُ ، كَأَن فِكْرَةً جَدِيدَةً طَرَأَتْ عَلَيْهِ ، فَاثْقَشَعَتْ  
الْبَسْمَةُ عَنْ شَفْتَيْهِ ، وَبَانَ عَلَى مَحْيَاهُ جِدٌّ :

قُلْ لِي ... هَلِ الرِّيحُ مُحَقِّقٌ ؟

- وَهَلْ فِي ذَلِكَ رَيْبٌ ؟! ... لَقَدْ خَبَّرْتُ الْبَحَرَ شَبْرًا شَبْرًا ...  
وَسَأَعَرْتُ كَيْفَ أَسْتَخْلَصُ مِنْهُ مَا يَخْبُوهُ مِنْ ذَخَائِرِ ، تَصَلَّنَا فِي  
رُكْبَتِهَا الْمَضْيِءِ ، بِشَرَاءٍ مُحَقِّقٍ وَشَيْك .

وَاطْمَأَنَّ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » بِكَلَامِ الْأَحْدَبِ ، وَتَطَلَّقَ وَجْهُهُ  
عَوْدًا عَلَى بَدْءِ ، وَأَنْفَذَ صَوْتَهُ قَائِلًا :

تفكر فى الأمر ...

( ٢١ )

وفى صبيحة الغد والنهار فى مؤتلفه ، كان « طور أغلو أفندى » وصاحبه التوتى فى قلب المدينة يطرقان متجراً للآلات البخارية .

واحتواهما المتجر ، فطفاً يجوسان خلال الزوارق المعروضة يتفحصان كلا منها فى دقة ونشاط .

وملك عين الأحدب زورق طويل عريض ، يزهو بطلابه الأحمر ، وقد انساب زجاج مقدمته فى تقويس ، يصد رشاش الماء وعبث الهواء ، وعلى حيزومه قامت سارية ، تدلى منها مصباحان هما للزورق فى حلقة الليل منار هداية وإرشاد .

أما باطن الزورق فهو محشو من مطاط وثير مكسو بجلد أخضر متعة للناظرين ، وفى مؤخرته مقعد مريح موصول بلولب ييسر له الحركة ، لا ينحاش عن الاتجاه الذى يصبو إليه ، وقد أحيط بنطاق من أدم متين يجنب من يعتليه خطر السقوط حين ينشب بينه وبين السمك تحاور وصراع .

ومن وسط الزورق يتسامى عمود أملس فاره علفت برأسه حائل كأنها المشانق نصبت لتلقى السمك المصيد . فطفق

النوتى يتوسمه تارة تسبح عليه نظراته ، وطوراً يتحسس  
جوانبه ، وربما صعد إليه وهبط منه فى خطأ مرجحة ، وأعطافه  
يترحان من إعجاب وشوق .

يا لهذا الزورق الخلاب ، لكأنه حوت من الحيتان الضارية أو  
واحد من القراصنة لصوص البحر ، درب على انتهاب و سلب ،  
يخافه البحر ويخشاه على ذخائره وغواليه من لؤلؤ ومرجان ولحم  
طرى .

وأوما « طور أغلو أفندى » إيماء الرضا حين وقعت عينه  
على عين النوتى وهما يتبادلان الرأى فى صمت .

وأوشك رب القصر أن يتوحي التاجر ، يتعرف منه الثمن ،  
يبدا أن النوتى أنظره بغمرة عين أن يكف عن صاحب المتجر ،  
ويخلي له حلبة النضال .

فتزل « طور أغلو أفندى » عند إرادة أمينه وانزوى يذرع  
الحانوت فى جيثة وذُهوب ، مهتاج الوجدان ، يقرض أظافره ،  
وصدره يجيش عزمًا على اقتناء الزورق ، والفوز به ، وإن غلا  
مهرة ، وكأنه صبي ركبته رعونة النشوة لمراى لعبة جديدة ،  
وقعت فى قلبه ، فبنى العزم أن يستحوذ عليها ويظفر بها غير  
مبال بما يتكلفه فى سبيلها من مغمم وغبن .

وحين انبرى النوتى للتاجر يجادلُه فى سعر الزورق ويداوره ،

استشعر « طور أغلو أفندى » حَقّاً يَتملّكُهُ ، وكأنَّهُ طوى  
السَّنينَ الفَهْقَرى إلى صباه ، يوم لم يكن قد تخطى بعد سَنِيهِ  
السَّبْعَ ، إذ قصد فى صُحبة أبيه متجراً يبيع للأطفال اللَّعبَ  
والألطافَ .

إنه يتذكر تلك اللعبة الطريفة التى راقته ، فتشبث بها فى  
إِصرارٍ وعنادٍ على الرغم من زَجَرِ أبيه ، وَرَكَبَ رأسَهُ يزداد  
باللّعبة من تَشَبُّثٍ وإلحافٍ .

وتَغَلَّبَتِ إرادة الأب ، فجذبَ ابنَهُ يغادر به المتجرَ وهو يتوعده  
وبصُحْبٍ عليه ، وَمَضَى الولد باكىَ العين ، كسيرَ الخاطر ،  
حتى أوى إلى فراشه مُضرباً عن عَشائِهِ ، تَفْتَالُهُ الحسرةُ ،  
ويقتله الحزن ، مؤرِّقَ العين ، مشغولَ البال ، لا تبرح خَيَالُهُ  
اللعبةَ الطريفةَ التى طارت منه .

وتمثّل له أَمِينُهُ الأحَدبُ فى يومه كأنه أبوه بالأمس البعيد ،  
وأحسنُ نَحْوِهِ بغيظٍ كظيم .

واستَهْدَفَ النوتىَ صاحبَ المتجرِ يعلَنُ له :

الزورق رائعٌ دون شك ، ولكن الثمن مغالىّ فيه ... إن لم  
يُعْجِبْكَ ما عرضناه من ثمن خرجنا نستخير السوق .

وعقب صاحب المتجر فى نظرفٍ وتوكيدٍ يقول :

هذا الزورقُ أحسنُ ما تَعَرَّضُ أسواقُ « اسطامبول » لن تجدوا  
له مثيلاً فى متجر آخر ... وثمنه معقول .

فاشْرأَبُ الأحَدَبُ يَمَّا كَسَ :

إن وعدتنا أن تكارمنا فى الثمن عُدنا ... موعدنا الغدُ .

وجذب النوتى « طور أغلو أفندى » من يده ، فأسلس له  
قياده فى يأسٍ وكأنه الطُفْلُ الذى لم يظفرْ بلعبته ، قَمَضَى  
يُسَايرِ الأحَدَبِ مكروب الصدر ، مغلوباً على أمره ، لا يُحَسِّنُ  
الخطو .

واحتواهما السَّبِيل ، فانفجر « طور أغلو أفندى » يَدْمُمُ :

سوف تُفَوَّتْ علينا الفرصة ... من يضمن لنا بقاءَ الزورقِ إلى  
غد ؟ ... ربما اشتراه اليوم راغبٌ فيه .

قَرِيتَ النوتى كَتَفِهِ ، وصوته يقول حازِمَ النبرة :

لن يفوز به أحدٌ غيرك ... دعنى أتصرف ... إنى حريص  
على مالك ، وكفيل بالتاجر ألينِ عِناده .

فهزُ « طور أغلو أفندى » كتفيه فى رُعونةٍ وامتعاضٍ ،  
وساير أميته الأحَدَبَ فى الطريق ، وما فتىء الزورق البخارى  
بتلاؤاً لناظريه ، كأنه يعاتبه فى بُخله عليه وتفريطه فيه .

أما النوتى قَدَرَجَ فى حَظْوِ ثابت ، تملأ نفسه الثقة بأنه  
مستَحْوِذٌ على الزورق فى غده دون رَيْبٍ .

(٢٢)

وبات « طور أغلو أفندى » تَغْتَالُهُ حُمَى التفكير .

يَا لِهَذَا الزورقِ البخارىِ الحَلَّابِ الجَسُورِ ... أين منه قاربُ  
الأحَدِ المَضْطَّعِ تلكِ السلحفاةُ الكسولُ ؟

إنه ليعتلى ظهرها كل يوم فى ملالةٍ وفُتُورٍ .

لا مَرِيةَ أن الزورقَ سَيُتَبَّحُ له ، إنِ اقْتَنَاهُ ، أن يَبْسُطَ سُلْطَانَهُ  
على المضيق ، وما بعد المضيق ، وربما تعداه إلى أعالي البحار  
يرفرف على غَوَارِبِ أمواجه عَلمٌ يحمل شَارَتَهُ بين ما يُرَقَرَفُ  
عليه من شارَاتٍ زَاهِيَةٍ تحمل علاماتٍ مُمِيزَةً لأَصْحَابِ الأَسَاطِيلِ ،  
وأَثْرِيَاءِ البحرِ .

تَمَنُّهُ ؟

كَبِيرٌ ولا شك .

الأحَدِ له العُذْرُ كل العُذْرِ فى المُسَاوَمَةِ والمُمَاكَسَةِ .

ولكن ما ندفعه اليوم محدوداً معدوداً ، سَنَجْنِيهِ غداً بلا حدٍ  
ولا عَدَ .

ولا يلبث ربّ القصر أن يريمَ سريره ، يخطو في حُجرته  
خطواتٍ متسكّعة لا تفارق اللقافة شفتيه ، وقد مضى الليل إلا  
أقله .

وقبيلَ الفجر قصد « طور أغلو أفندى » منزل الحراسة  
مكتملَ البزّة ، وذهب يتفقد النوتى ، فالفاه فى الحديقة أرقاً ،  
مُتّاج الفكر ، نَبى به فراشه ، فخرج إلى البستان يَسْتَرُوح  
بِنَسِيمِ الليل المُفعم بأريج البحر ، وقد افترش العشبَ الندى ،  
ومن حوله وعاءٌ من قُحَّار فى لون الأرض ، ترصّعه جَمَرَاتُ  
متوهّجة ، استوى عليها إبريق الشاي ، يتصاعد من مائه  
المحتبس بخارٌ موصولٌ .

فَجَالَسَ « طور أغلو أفندى » نوتيه الأحذب ، يقاسمه  
الشَرَابَ الساخن فى صَمْتٍ يُحَدِّجَانِ السماءَ بنظراتٍ حَامِيَةٍ  
كأنها القذائفُ المُنطلقة ، فُصِّلَتْ عن عينهما ، فى غَبْشَةِ الظَّلامِ ،  
تَصْدَعُ الليلَ ، وَتَحُثُّ الضِّيَاءَ على غزو الوجود ، مَهْدَةً لَهَا  
طريقَ النُّصْرِ فى حَشْدِ نور الصَّبَاحِ الفتى .

وجمعت بين الرجلين غايةً واحدة ، وألّفَ بينهما هدفٌ مشتركٌ ،  
ألا وهو الزورقُ البخاريُّ ، فإنّهما خرجا عن صَمْتِهما ، يَبْغِيَانِ  
إيضاحَ ما يَعْتَلِجُ فى صدريهما من أمانٍ وأحاسيسٍ ، يداولهما  
سمرٌ مهوَّشٌ وكلامٌ ميثورٌ ، وفى متاهاتِ الأحاديثِ تَصْبِغُ الفكرةُ  
حتى تتلاشى بينهما لا تَفْصِحُ ولا تَبِينُ .

وَيَبْنَ آنِ وَأَنْ ، يَزُقُّرُ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » زَفَرَةُ مَكْلُوعِي  
وَتَهْوِي - أَنَامِلُهُ عَلَى شَعَرَاتِ شَارِبِهِ ، يَجْتَثُّهَا مِنْ جُذُورِهَا ،  
وَعَيْنَاهُ مُشْرِعَتَانِ إِلَى السَّمَاءِ ، كَأَنَّمَا تَلِحَّانِ عَلَى النُّجُومِ أَنْ  
تَغُورَ .

(٢٣)

واصطبح بهما متجرُّ الآلاتِ البخارية .

وجهرَ النوتى يُسَاوِمُ ويجادل ، لا تَلِينُ لَهُ قَنَاءٌ وَلَا يَرْجِعُ فِي  
كَلِمَةٍ تَقْوَةً بِهَا ، أَوْ عَرَضٍ عَلَى لِسَانِهِ أَجْرَاهُ ، عَلَى حِينِ جُلُوسِ  
« طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » رَاجِفَ الْقَلْبِ ، يَرْقُبُ الْمَعْرَكَةَ ، وَيَتَعَجَّلُ  
نَهَائَتَهَا عَلَى أَىِّ نَحْوٍ تَكُونُ .

وأخيراً نطق صاحب المتجر يقول وهو يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ :

لَيْسَ فِي مُسْتَطَاعِي ، أَنْ أَتَسَاهَلَ أَكْثَرَ مِمَّا تَسَاهَلْتُ ...  
كَفَانِي مَا انْتَقَصَتْ إِكْرَامًا لَكُمْ .

واهتزت حَدْبَةُ النوتى فِي غَضَبٍ مُوهُومٍ ، وَتَوَخَّى سَيِّدَهُ بِقَوْلِهِ :

إِنْ صَاحِبِنَا لَا يَرِيدُ إِتْمَامَ الصَّفَقَةِ ... هِيَا بِنَا إِلَى مَتَجَرِّ  
« صَمَوِيل » فَإِنَّهُ تَاجِرٌ يَعْرِفُ كَيْفَ يُحَاسِنُ عَمَلَاءَهُ .

وفيما هما يَمْضِيَانِ إِلَى الْبَابِ ، مُتَقَاصِرَةً خَطَاهُمَا ، تَرَامَى  
إِلَى سَمْعِهِمَا صَوْتُ التَّاجِرِ يَنَادِيهِمَا ، جَهِيرَ الصَّوْتِ مِنْ مَكَانِهِ  
الْقَصِيِّ :



عَلَيْهِ رِسَالُكُمْ ... لا يتمُّ البيعُ والشراء على هذا التَّجَوُّرِ...  
سَأَزِيلُ لِحَصَمٍ خَمْسَةً فِي الْمِائَةِ ... إِعْزَازًا وَمَحَبَّةً ... فَإِنْ  
قَبِلْتُمَا ... فَأَنْتُمَا الرَّابِحَانِ .

فَتَحْمُسُ النَّوْتَى يَقُولُ ، وَهُوَ يَدُ رَجُلِهِ نَحْوَ الْبَابِ ، وَيَدْفَعُ  
« طُورِ أَغْلُو أَفْنَدَى » فِي أَثَرِهِ ، فَيَتَعَثَّرُ الرَّجُلُ فِي بَدَانَتِهِ ، يَغْزُ  
السَّيْرَ عَلَى تَمَنُّعٍ وَكُرْهِ :

وخمسةٌ أخرى ... أنت في كلتا الحالتين الكسبان .

وَقَارَيْتُ عَتَبَةَ الْبَابِ أَنْ تُسَلِّمَهُمَا إِلَى الطَّرِيقِ .

ولكن التاجر لاحتقهما يقول :

تَأْيِيَانِ إِلَّا أَنْ أَبِيعَ الزُّورِقَ بِأَصْلِ ثَمَنِهِ لَا يَكُونُ لِي مِنْهُ كَسْبٌ ؟  
... فليكن .. وَالْعَوَضُ عَلَى اللَّهِ .

وَارْتَدَّ « طُورِ أَغْلُو أَفْنَدَى » إِلَى مَجْلِسِهِ يَسْتَوِي عَلَيْهِ ،  
وَأَمْسَكَ بِحَافِظَةِ نَقُودِهِ يَعْثُ بِهَا ثُمَّ وَضَعَ أَمَامَ التَّاجِرِ وَالنَّوْتَى  
الَّذِي لَحِقَ بِهِ رُزْمَةً مِنْ أَوْرَاقِ النِّقْدِ وَهُوَ يُهَمُّهُمْ فِي تَحْرِيجٍ :

هَآكِ بَعْضُ الثَّمَنِ ... فِي غَدِ تُوْفَى لَكَ مَا فَضَلَ .

وَفَرَّغَ التَّاجِرُ لِرُزْمَةِ النِّقْدِ يَحْصِيهَا عَدًّا ، ثُمَّ غَيَّبَهَا فِي جَيْبِهِ ،  
وَانْكَبَّ يَدُونُ سِنْدِ التَّسْلِمِ قَائِلًا :

فَتَحْمُسُ النَّوْتَى يَقْتَضِي اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ .

ولما رفع رأسه ألقى « طور أغلو أفندى » من حول الزورق  
يطوف به وهو يحدُّ إليه نظراتٍ زهريٍّ وفخارٍ .

ونشط النوتى يجيب البائع :

فى غد أعودُ إليك بكل ما تُريد لتحرير العقد ، واتخاذِ  
الأهبة لنقل الزورق .

ثم تناول السند ، يدسه فى صدره ، وما أسرع أن ذهب إلى  
« طور أغلو أفندى » يؤفُّ له الخبر :

لقد تمَّ كلُّ شئٍ ... هيا بنا ... مبارك ... مبارك .

وأخذ بيده يشده إلى الباب ، ولحظة غادر المتجر ألقى على  
زورقة الحبيب نظرةً جائعةً وكأنه يبتلعُه بعينيه .

(٢٤)

تلقَّتَهُما السيارةُ الحافلة ، فجنحَ الأحدبُ « لطور أغلو  
أفندى » يخافُ بالقول :

أرأيتَ كيف تكون المساومة ؟

فهينم ربُّ القصر :

لقد تركتُ لك الأمر تتصرفُ فيه بخبرتك ولم أشك فى حسن  
تصرفك .

لقد حملتني الأمانة فأديتها بما يقتضيه الشرف ، ويسكن إليه  
الضمير .

ومرقت السيارة الحافلة تختزل الطريق مهذهدة راكبيها  
بهزاتها الموصولة ، فما عتم « طور أغلو أفندي » أن غشيت  
عينيه إغفاءة طمأنينة واسترخاء .

أما النوتى فانكمش فى مجلسه يتداخل بعضه فى بعض ،  
وقد طوَّحَ برأسه إلى الخلف يُريحه على حافة المقعد ثم أسدل  
قلنسوته المغبرة على عينيه ، مُطلقاً لفكره العنان ، يرتع فى  
وادی الأخيلة والأطيار .

وسرعان ما زفَّ إليه النعاس عرائس الأحلام ، وقد تراءى فى  
متجر الآلات البخارية أنيق البزة ، والتاجر يخفُّ إليه مرحباً  
به ، مكرماً وقادته ، مدنياً منه الكرسي الرحيب ، يدعوه إليه ،  
فى تودُّدٍ وملاطفةٍ ، فلا يملك إلا أن يقتعده فى تنفُّحٍ وانتقاش .

وما هى إلا أن يُبرِّزَ للتاجر ما بقى من ثمن الزورق ،  
وهو يملئ عليه اسم المشتري ، فيسبق إلى لسانه اسم ابنته  
« فورتونية » العزیزة فى تشدُّقٍ واعتداد .

ثم تُسفر له أخيلة المنام ، عن متن البحر المبحر الزورق  
الجسور وهو مُقْتَعِدٌ منه مكان القيادة كأنه ملك يتبوأ سرير  
ملكه عليه مهابة وجلال ، وقد تيمأت قوَّة عينيه « فورتونية »

الْمَعْدَ عَنْ كَثَبٍ مِنْهُ ، ضاحِكَةً السِّنِّ ، مُسْتَبْشِرَةً الْوَجْهَ ، يَتَطَايَرُ  
شَعْرُهَا السَّبْطُ مَعَ الْهَوَاءِ ، وَهِيَ فِي لُبُوسِ الْبَحْرِ تَمْرُحُ فِي  
أَعْطَافِ نِعْمَةٍ وَرَخَاءٍ ، وَالزُّورِقُ يَمْرُقُ بِهِمَا يُنَاطِحُ الْهَوَاءَ ، وَيَشْقُ  
الْيَمَّ ، فَيَصِيبُهُمَا رِذَاذٌ يَزِيدُهُمَا مِنْ إِشْرَاقَةِ وَبْشَرٍ .

(٢٥)

وتوقفت السيارة الحافلة .

وصاح مَحْصَلُ الْأَجُورِ يَنْبِذُ الرِّكَّابَ إِلَى مَحْطَةِ الْوُصُولِ ،  
فَاسْتَبَقَ النَّوْتِيُّ ، وَانْتَنَى عَلَى « طُورِ أَغْلُو أَفْنَدِي » يَقْبِلُهُ مِنْ  
نُعَاسِهِ . وَأَسْرَعَ الرِّجْلَانِ إِلَى الْبَابِ يُصْدِرَانِ عَنِ السَّيَّارَةِ الْحَافِلَةِ  
وَهِيَ تُوشِكُ أَنْ تَسْتَأْنِفَ الْمَضَى .

وما التقى النوتى بأسرته حتى جَلَجَلَ صَوْتُهُ يُنْهِئُ إِلَيْهِمُ النَّبَأَ  
الْعَظِيمَ فِي صَوْتِ مَحْبُورٍ :

أَلَا تَبَارَكُونَ ؟ ... لَقَدْ اقْتَنَيْنَا زُورِقًا بَخَارِيًّا لَيْسَ لَهُ فِي  
الْمَضِيقِ ضَرِيبٌ .

وتقدمت أَسْرَةُ الْأَحْدَبِ مِنْ رَبِّ الْقَصْرِ ، كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا يُزْجِي  
تَهْنِئَتَهُ ، بِحَسَبِ ذَوِّهِ وَفَنِّهِ ، وَوَقَفَ « طُورُ أَغْلُو أَفْنَدِي » بَيْنَهُمْ  
وَقَفَّةَ الرُّعَامَةِ يَنْشُرُ عَلَى رَعِيَّتِهِ بِسْمَاتِ الرُّضَا وَالْإِنْشِرَاحِ .  
وَانْطَلَقَ النَّوْتِيُّ يَنْشُدُ جَمْلَةً يَكْمِلُ الْخَبَرَ السَّعِيدَ .

لقد تم اختيار الزورق بفضلٍ وحُسنٍ تدبِيرٍ ...

وركبَ الزهوُ « طور أغلو أفندى » وقد انتفتحت أوداجُه ،  
وانتفش شاربُه ، وتسامى بصدْرِه ، ينظر إلى الجمع تأخذُه عِزَّةُ  
وكبرياءُ .

وواصل النوتى حديثه :

سيكون ذلك الزورقُ فاتحةً خيرٍ وازدهارٍ .

فعقبَ « طور أغلو أفندى » يقول ، وهو يقتل شاربَه ويبدُ  
الحركة :

الخبرةُ فيما اختاره الله .

ثم مضى صوبَ القصر ، خَفِيفَةً خطاهُ ، كأنما هو طائر  
يُحَجِّلُ ، مُوشِكاً أن يُرَقِّفَ بجَنَاحِيه .

(٢٦)

ولما تنفَّسَ الصبح ، بكَّرَ النوتى إلى مرقدِ سيده يُحييه مُشرقَ  
الطلعة ، مرح الأوصال ، فألفاه مُقبلا على فُطوره ، يلتهم  
بيضاتٍ ثلاثاً ، غرقتَ فى سمنها الرُقراقِ تحاكى فى صُفرتها  
لونَ الذهب ، فكأَنَّها فى الطَّاسِ نجومٌ لامعة فى السماء  
الصَّافِيَةِ تحيط بها هالةٌ من سُحبٍ ناصعة البياض .

وجعل ربُّ القصر يُصِيبُ منها اللقمةَ تلو اللقمةِ مُتَفَتِّحَ النفسِ ،  
لا يلوى على شئ .

وأقلت منه نظرةً إلى النوتى ، فتنحج يسأله ، والرجل على  
قرب منه ، يتلاعب بحشأيا قلنسوته الغبراء :

خيراً ... فيمَ بُكورك ؟

فأجاب النوتى :

الزورقُ فى انتظارنا .

- ماذا علينا أن نفعل ؟

- أو نسيَ سيدي ؟

- ماذا نسيت ؟

- نؤدى للتاجر بقيةَ الثمن ... ثم نتخذُ الوسيلةَ لنقلَ الزورق  
حتى نُسلمَهُ إلى البحر فى أمان .

- هذه مهمَّتُك ... وعليك تدبير ما يلزم ... أما أنا  
فسأصاحبك لأتخذَ التاجرَ فاضِلَ الثمن ، وأتسلمُ منه المخالصةَ .  
فَشَهَقَ النوتى :

أوبصَحُ يا سيدي أن تُجشِّمَ نفسك مَشَقَّةَ الانتقال وأنا هنا  
طوع بئانك ... عوَلٌ على ... سيتمُّ كلُّ شئٍ كما لو كان سيدي  
معى ...

- لا بأس ... سألبثُ هنا اذنَ ريثما تحبُّ بالزورقِ إلى المرسى  
... لستَ فى حاجةٍ إلى أن أوصيكَ بالزورقِ خيراً ... حاذر  
إهمالَ العمالِ ... إنهم مُهمِلون لا يُبالون .

- الزورق فى عَيْنِي ... سأتصرَّف كما لو كان ملكاً لى ...  
مالكِ مالى يا سيدى ، أخشى عليه خشيتُكَ عليه ...

وضرب « طور أغلو أفندى » يده فى جيبه يُخرج ما أعدُّ من  
أوراق نقديةٍ يَفِي بما يقى من الثمن ، وانثنى يُسَلِّمُهَا إلى النوتى  
ورقةً ورقةً ، فى دقةٍ وأناةٍ .

ولما انتهى من العد والتسليم ، رجع إلى صَحْنِ البَيْضِ  
يَغْمِسُ فيه لُقْمته ، وسمع النوتى يهينم له فى رفق بقوله :  
بقى شئٌ يا سيدى .

ومسح « طور أغلو أفندى » فمه وجمَّعَ وقد باعَتَتْهُ كلماتُ  
الأحَدَبِ :

ماذا ... ؟

رسمُ استخراجِ الرخصة .

فَوَجَّهَ رَبُّ القصرِ تضطرب شفتاه ، وعيناه بالأحَدَبِ  
موصولتان لا تَطْرِقان ، ثم نطقَ يَسْتَطْلِعُ مَهْزُومَ الصَّوْتِ :  
أليس من استخراجها بُدُّ ؟

- لكل زورق رخصة .
- ألا يمكن تأجيلها إلى حين ؟
- إذا جرى الزورق غير مرخص ، تعرضنا من رقابة الشرطة لمغارم كبيرة .
- لقد دفعنا الكثير .
- ولم يبق إلا القليل .
- فَتَمَلَّلَ « طور أغلو أفندى » فى جلسته ، ولم يملك إلا أن يمهّر النوتى على مضض ما طلب ، وهو يردد :
- الأمر لله ا

( ٢٧ )

- انهزم الصيف .
- وآب « طور أغلو أفندى » إلى مشتاه فى الريف البعيد ، هرباً من عاديّات البرد وهجمات الرياح .
- كان شتاء قاسياً ، أجذبت منه الأرض ، وبار الزرع ، ونقص الربيع .
- ثم دالت دولة الشتاء .
- ولكن « طور أغلو أفندى » لم يجد فى مقدوره أن يرحل



إلى مصيفه على ضفاف « البسفور » ، يلتقى بقصره ، ويجول  
فى المضيق ، ويصول ، محتطياً زورقه البخارى يزهو به ويفاخر ،  
ملتقياً إلى البحر شصه المنهوم .

ماذا أنت طالبٌ إليه ... ؟

أترأه وقد فقد فى هذه الشتوة ما ألف من قبضِ الريح يدٌ يده  
إلى ماله المدخر ، فيفتلذ منه قلذة يلهو بها لهو الصيف ؟  
لا كان ذلك ولا جرى .

فلم يغربُ عن فطنته المتبقطة المثل القائل : « من مدُ عَيْنُهُ  
إلى ما ليس فى يَدَيْهِ ، أَسْرَعَتْ الحَيَبَةُ إِلَيْهِ ، وَعَكَّتْ عَلَيْهِ » .  
ليَعْقِل هذه الحكمة ، وليَسْتَعِن بها فى ريفه القصي على  
تحملٍ وَهَجٍ القَيْظِ ولسعِ البعوض ، ورتابة العيش .  
لا مَرَّة أن الأيام آتيةٌ ، وكلُّ شدةٍ إلى فرج .

وتعاقبت شتوات جذباء ، لقي منها الرجل عنتاً ، أى عنت !  
ولكنه صبر عليها جهده ، فلم تستطع أن تقتحم عليه ما يدخره  
من مالٍ فى المصارف دفينٍ .

قنع بالقرار فى بيته الريفى ، يُزجى أيامه الموحشة ملول  
المزاج ، يتلقى فى تبلدٍ واستسلام ضربات القدر وما دهمته به من  
ذلٍّ وحُرمانٍ .

وفى الفينة بعد الفينة تراوده أحلام العيش فى قصره الصيفى  
حيث الزورق البخارى يمهّد له المتعة والإيناس ، فتسرى بين  
جنبه مشاعرُ اللّهفةِ ، فيتغنى لنفسه بقوله وهو يقرضُ أظفاره  
مشبوب الحنين :

طولُ الصبرِ يُبلِّغُ الأمل ... لا بأس ... الأيام مقبلَةٌ لا رب ،  
وبعد الغمام يصفو الجوُّ ويروق .

ولم يغفل الرجل خلال تلك الغيبة أن يكتب ، فى استفاضة ،  
إلى حارسِ قصره يستخبره عن شئون القصر وما يفيئه الزورق  
من صيدٍ ربيع ، فلا يتلقّى من رجّع الجواب إلا سطوراً معدودةً  
تنبئه على وجه الإجمال بأن كل شئ على أحسن ما يُرام ،  
فيزدرد « طور أغلو أفندى » تلك السطور كأنها فتات العيش  
تتلقاه معدة خاويةً فيزيدها من جوع .  
وأخصبت السنة ...

وما كاد الصيف يهلّ حتى ولج طور أغلو أفندى مكتب  
البرق مُتفتّح النفس ، وانكبّ على ورقة يدوّن فيها برقيةً إلى  
حارسه يزفُ إليه موعِدَ القدوم .

(٢٨)

أما فى قصره الصيفى ، فكان للأحداث وجهٌ غير ذلك

الوجه العَبُوس الذى شَقِيَ به « طور أغلو أفندى » فى مَشْتَاه  
القصيِّ .

منذ رحل ربُّ القصر ، عكف النوتى يُقَدِّح ذَهْنَهُ ، ويصل  
أسباب عيشه ، لا تَفْتَرُّ له عزيمةٌ ، ولا يَهِنُ له تدبير .

لم يفلت ركنٌ من القصر ، وإن ضُوِّلَ شأنه ، إلا اقْتَحَمَتْهُ  
عبقريته ، ودَارَتْ فيه يدُه الدَّريَّة ، تُمِيطُ عنه غُبار التَّعَطُّلِ  
والجمود .

وَاتَّبَعَتْ بشاقب نظره ، وحْدَةً فطنته ، يفترق ما يَسْعَهُ أن  
يفترق من ذلك الكنز الضائع ، فتبدلت حاله وبانت عليه مخايلُ  
ثراءٍ ونِعْمَةٍ .

مرت الأعوام هانئةً .

وتقاطر الخطاب من خيرة الشباب عليه يطلبون ابنته الحسنة  
« قُورتونيه » قرَّة عينه ومَطْمَحِ هواه .

غير أنه كان يُنَحِّيهُم عنه فى تَغَطُّرُسٍ ، مُنْتَظِرًا لابنته ذلك  
الزوج الملى ، الذى يستطيع أن يَزِنَهَا بالذهب ، وأن يَفْرِشَ  
طريقها بالزمرّد واليواقيت .

ولا تسلم عن الزورق البخارى الذى ازدان به مرسى القصر ،  
وانفسحت له جوانبُ المَضِيقِ يَسْرَحُ فيها ويمرَحُ ، مُسْتَأْثِرًا بما  
تُخْبِنُهُ الأعماقُ من نتاج موفورٍ .

وفى غمرة هذه المباحج والمسرات ، لم يَحْسِبُ النوتى حساباً  
 ليقظة الجيرة وسهر الأعين عليه .  
 تناسى أنهم له بِرَصَدٍ ، يُخْصُونُ عليه الحركة لينالوا منه ،  
 ويوقعوا به ، حَسْداً له .  
 ماذا يَمْلِكُ الناسُ من أمره ، وقد أسلس له الحظُّ عَتَانَهُ ؟  
 فليَتَمَيَّزُوا غَيْظاً ، وليَسِرْ فى طريقه ، لا يَعْبا بِشائعةٍ ...  
 تُقال ، أو وشاية تُحَاك ...

( ٢٩ )

وجاءت البرقية .

وأمسك بها النوتى يَفْضُ غِلَاقَهَا ، فهِبُ عليه النبأ الفاجعُ  
 كالإعصار الجارف ، يَفْتَلِعُ فى هَبَاجِهِ ما للبرقية من كلمات ،  
 فَتَتَنَاقَرُ حروفها كأنها الحَصَبَاتُ انسلختْ من بين السطور ،  
 ترجُمُ فى تطايرها ناظرته ، فتفقدُهُمَا صَفَاءَ الرُّؤْيَةِ ، وتَطْمُسُ ما  
 لجوهر الأشياء من وضوح .

واعترأه وجوم .

ولاحظ أهل بيته وأصفياءه المقربون اضطرابَ أمرِهِ ، فهو  
 منكدرُ النفس ، حامِضُ الطبع ، لا تخلو كلماته من سبابٍ  
 وعتابٍ .

راحت السكره ، وجاءت الفكرة ...

لقد انقطع عهده برب القصر سنوات فكأنما أصبح هو للقصر  
رباً يُصَرَّفُ شأنه كما يشتهي ، يُظَلُّه ، بجبروت وسلطان ،  
فخيل إليه على كرّ الليالى ومرّ الأيام أن سيده ذلك لم يعد له  
أوبٌ ... طواه إلى غير رجعة قبرٌ سحيق ، فلم يتبقّ فى مملكته  
منه إلا أصداءٌ شاردة تتمثل حيناً بعد حين فى رسائل ، ما هى  
إلا حبرٌ على ورق ... أصداءٌ تذهب مع الريح ، وتتطاير فى  
فُسحة العراء تطاير الهشيم .

فما لتلك البرقية تشق اللحد الذى استودعته ذكرى سيده  
تبعثه حياً يسعى إليه ؟

واعتمد الأحذبُ رأسه بين راحتيه ، وذهب يُراجع نفسه ،  
مدبراً خطة لقائه لذلك الشبح الزرى البغيض .

حان له أن يودّع حرّيته ، وينزل عن عرشه ، ويستقبل عهد  
مُساءلةٍ وحساب .

لن يكون له بعد اليوم سيطرة على الزورق البخارى الذى  
تولّى أمره واستمرّ خيره ، كأنه عبدٌ من عبّيده الأوفياء .

ولبث الرجل على قلقي ، لا يكادُ يلقى واحداً من أسرته إلا  
عنّف به ، وأنحى عليه بأوامره ، متوعداً إيّاه بأقصى العقاب

إن هو شقَّ عَصَا الطَّاعَةِ ، وِيدُهُ تَعْلُو وَتَهْبِطُ تُسَانِدُهُ عَلَى تَأْكِيدِ  
عِزِّهِ ، مَلُوحَةً بِوَرَقَةِ الْبَرَقِ تَتَنَفَّضُ .

وَقَرَّطَتْ مِنْهُ إِلَى الْبَرَقِيَّةِ نَظْرَةً ، فَتَوَقَّفَتْ يَدُهُ عَنِ التَّلْوِيجِ ،  
وَمَا لَبِثَ أَنْ هَوَىٰ عَلَيْهَا تَمْزِيقاً ثُمَّ أَلْقَىٰ بِحُطَامِهَا إِلَى الْعَرَاءِ ،  
وَفَارَقَ الْبَسْتَانَ هَائِماً فِي خَطْوِهِ ، لَا يَعْرِفُ لَهُ وَجْهَةً يَقْصِدُهَا ،  
وَحُطَامِ الْبَرَقِيَّةِ يَهْبِجُهُ النَّسِيمُ ، فَتَتَرَاقَصُ قِصَاصَاتُهُ الْمَتَنَاثِرَةُ ،  
كَأَنَّهَا أَطْفَالٌ تَشْغَبُ فِي أَثَرِهِ ، تُشَيِّعُهُ فِي مُنْصَرَفِهِ بِسُخْرِيَّةٍ  
وَاسْتَهْزَاءٍ .

( ٣٠ )

وَفِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَقَفَ النَّوْتِيُّ عِنْدَ مَرْقَأِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرِ ،  
مُتَنَفِّحَ الْأَوْدَاجِ ، مُقَطَّبَ الْأَسَارِيرِ ، تَهْتَزُّ حَدَبَتُهُ عَلَى ظَهْرِهِ ،  
وَهُوَ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُهَيِّئُهَا لِيَتَلَقَّى سَيِّدَهُ بِمَا يُوجِبِي بِالْحَفَاوَةِ  
وَالْتُجَلَّةِ وَالْإِكْرَامِ .

وَمَا لَفَظَتْ السَّفِينَةُ « طُورَ أَغْلُو أَفْنَدِي » مَعَ الصَّادِرِينَ  
عَنْهَا ، حَتَّى أَسْرَعَ إِلَى أَمِينِهِ النَّوْتِيُّ بِشِدَّةٍ عَلَى يَدِهِ فِي سَلَامٍ  
جِيَّاشٍ ، وَهُوَ يَصْدَعُ فِي صَوْتٍ كُلَّهُ بِهَاءٍ مِنْ قُرْطٍ سَعْدِهِ بِاجْتِمَاعِ  
الشُّمْلِيِّ :

مَا أَطِيبَ اللَّقَاءَ بَعْدَ طَوِيلِ احْتِجَابٍ .

وأسلم النوتى كَفَهَ لسيدِه ، يتقبَّل عطفه فى تطامُن ، ومضى  
يبادلُه التحيَّاتِ على تكَلُّف ، مُريداً قسماًتِه على أنْ تحْمِلَ  
علامَ السرورِ ودلائلَ البشرِ .

وزَحَمَه « طور أغلو أفندى » بقوله متورِّدِ الوجنتين ، وهو  
يفتح صدره ، يعْبُ الثَّسيمَ عبُّ سكران :

سوف نُعاوِدُ الحِياةَ من جديد ... نغزو « البوسفور » بشباكنا  
على ظهر زورقنا الحبيب .

وهزُّ النوتى رأسه موافقاً فى صَمَتِ ، وقد اثنتى يَنْقُلُ أحمالَ  
المتاع .

أماً استقبالُ القصر لعاهله فكان رائعا ... استقبالُ الغُزاةِ  
الفاحين ... امرأةُ النوتى وأولادُه وحَقْدَتُه فى صَفِّ مرصوص ،  
يَنْحَنون خافِضى الرؤوس مهتئين ، والقصر مُعَطَّر ، يَشيعُ فيه  
أريجُ البُخور ، تزدان أبهاؤه بألوان الرياحين ، وتَتَجَلَّى رِياشُه  
مُهَنْدَمة تَرْفُ إلى النفس الأنسَ والانشراح .

وتجَلَّتِ الحديقة ، مَشْدَبَةٌ مورِقَةٌ ، تجفَلُ أفنانُها بأطايب  
الثمار .

يميناُ إن النوتى لم يُخَيِّبْ ظنَه ، لم يُخِلْ بواجبه ... ما أروعُه  
من حارس أمين .

(٣١)

ما خلا « طور أغلو أفندى » إلى نفسه ، ينقضُ عنه متاعب  
السفر ، وينال قسطاً من الراحة حتى استدعى الأحذب يتحدثُ  
إليه ، ويسأله في أخبارِ القصر ، وشواغلِ الزورق خلال محبسه  
في مشتاه الطويل .

وأسمعهُ النوتى من الأنباء ما يسرُّ الخاطر ، ويروى الظمأ ، فلم  
يتمالك « طور أغلو أفندى » أن تفوهَ بعبارة مهترُ الاعطاف :

عظيم ... عظيم ...

وأشرعَ إلى النوتى عينيه وطقق يقول :

ألك أن تحدثنا عن الصيد ... وتصفَ لنا حال البحر ؟

فاندفع النوتى في شرحه ينمقُ عباراته ، وهو يصبُّ الأنباء  
على رب القصر متحاشياً أن يزجَّ بالزورق في مجرى الحديث ما  
وسعه أن يتحاشى .

وما أتخم « طور أغلو أفندى » بالأخبار ، واطمأنت نفسه  
إلى صدق ما وعى حتى خرج عن صمته يقول :

جزاك الله ... شوقتنى إلى البحر أكثرَ ما أنا إليه مُشتاق  
... عليك بإعداد الزورق ... وتجهيزه أتمَّ تجهيز ... موعداً  
على المرسى ... عند الأصيل .



وحاول النوتى أن يُثْنِي رَبَّ القصر عن عَزَمِهِ ، وَيَحْمِي الزورقَ  
من نَزَقِهِ ، فهينم : ألا يَجْدُرُ بِسَيِّدِي أن يستريحَ اليوم ... وفى  
غد تُجْرِي الزورق ... ونختبر البحر ؟

فاستأنف « طور أغلو أفندى » قوله ، وفى صوته رَنَّةُ عتاب  
ملحوظ :

أبعد ذلك الغياب الطويل عن مباحج الحياة ، ومفاتن المضيق ،  
تطالبنى بالاحتجاب عن الزورق أكثر مما احتجبتُ ؟ ...  
أو تحسبنى « أيوبُ الصبور » ... أحتمل ما أحتمل فى مجالدةٍ  
وعزم ... لا ... لا يد لى من ساعةٍ لهُوَ تُعَوِّضُنِي ساعاتِ  
الحرمان التى اكتويتُ بناها فى مَشْتَاى الكَتِيبِ .

وتهيأ النوتى لمواصلة ما انقطع من كلام ، إلا أن « طور  
أغلو أفندى » صرفه عن التعبير بقوله :

حسبى ما سمعت ... لقاءنا فى الموعد المضروب ... ليكن  
كل شئ على ما يرام ... لا تنس ما أوصيتك به .

واحتجب يُوغِلُ فى مُسْتَحَمِّ القصر .

وانغلقَ عليه بَابُهُ .

وشمل المكان صمْتُ .

وصدر النوتى مُتَصَاغِرًا ، وساقته قدماه إلى حظيرة القوارب

يشغل باله حديثُ سيده عن الزورق المنشود ، وحامِّ حوله حومِ  
الطير على قرْخه ، ومثل يتملاه ويتلمسه في تحنُّنٍ كأنه قطعةٌ  
حيَّةٌ منه ، يُشْفِقُ عليه من إمرةٍ سيدٍ طاغية ، وكأنما لطول  
استنثاره به وألفته له ، يعظمُ عليه أن يَشْرَكَ فيه أحد ولو كان  
« طور أغلو أفندى » نفسه ، صاحبُ الحق فيه .

إنه ليُراوده الساعة إحساسٌ بأن ذلك الزورق أشبه ما يكون  
بطفل له ، تعهدهُ وأنس به ، فكيف يبيع ليدٍ غير يده أن تمتدَّ  
إليه تأخذه منه غلاباً أو تستلبه استلاباً ؟ .

لا مريمَ أن عملاً مثل ذلك لعملٍ من أعمال القرصنة تُدينه  
شريعةُ الله ، ويستنكره قانونُ البشر ، فينددُ بالآثم ، وينزلُ به  
أقصى عقوبةٍ وأعسرَ قصاصٍ .

أيقفُ من زورقه مكتوف اليدين لا يدركُ عنه الخطر المحدقُ  
به ؟ .

ما عساه أن يخلِّقَ من أعذار تردُّ اعتداءً « طور أغلو أفندى »  
وتَهْجُمُ عليه ؟ .

وامتطى الأحذبُ ظهرَ الزورقِ ، واقتَعَدَهُ ، يقلَّبُ بصره فيه ،  
تشرَّدُ به تأملاته .

وامتدت به الجلسةُ .

وتشابكت برأسه الأفكارُ تشابكَ العناكبُ في خيوطها ،  
فَقَسِدَ رَأْيُهُ ، وَعَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ ، ولم يعد له من حيلةٍ إلا أن يَنْزِلَ  
عن عرش زورقه ، وَيَدْخُلَ مرغماً في متاهات النسيان .  
وصعدُ النوتى زفرةً ، وقد أوشكت دموعُ اليأس أن تَنْبَجِسَ  
في مآقيه .

### ( ٣٢ )

وعند العصر خرج الزورق من الحظيرة إلى المَضِيقِ ، يَذْرَعُهُ  
في اقتدار ، وقد احتلَّ « طور أغلو أفندى » كُرْسَى الصِّدَّاءَةِ  
منه ، ونَعِمَ معه برحلةٍ صيدٍ مُباركٍ ميمونٍ .  
وآب إلى قصره ، تترنَّحُ أعطافه ، وتزهو نفسه بما أحرزَه  
على البحر من نصر عظيم .  
والتفت النوتى إلى سيده يَسْتَأْمِرُهُ في شأن حصيلَةِ الزورقِ من  
صيد اليوم .

فأجابه « طور أغلو أفندى » وهو يتلفظ :  
لا تَعْرِضْهُ كُلَّهُ للبيع ... اسْتَبَقِ منه مقداراً غيرَ قليل ...  
نَفْسِي راغبةٌ في أَكْلِهِ منه مُشْبَعَةٌ .  
ومضى إلى القصر ، تَدَاعَبُ خياشيمه رائحةُ الشَّوَاءِ الشَّهِيءِ .

(٣٣)

وبعد أن أصاب « طور أغلو أفندى » عشاءه ، واستسلم  
لأفكاره ، ومن فوقه نجوم الليل تبص كأنها ترحب بمقدمه ، إذ  
دار بخاطره أن حارسه لم يفتح حديثاً فى شأن المحاسبة فيتبين  
كسبه ويتعرف مغانمه .

أما حان لأمينه الأحدث أن يجلس إليه فى هذا الشأن ؟  
وانتظر على مرسى قصره ، حتى أوغل الليل ، وأخيراً لم  
يجد بداً من أن ينهض إلى منزل الحراسة ، فالتقى بالأحدث  
جالساً تحت عريش الكرم يدخن لفافة ، وقد أسبل جفنيه ،  
وتوضعت على جبينه سحابة غائمة من تفكير .  
فتنحج « طور أغلو أفندى » يقول متخشع الصوت :  
مساء الخير .

وإذا بالنوتى يتفزع من أحلامه ، وينهض واقفاً ، متلعثم  
اللسان يرُدُّ التحية : تفضل سيدى ... شرف كبير أن تزورنى .  
وهبَّ يقدم إلى رب القصر مقعداً تخيره .

فجلس « طور أغلو أفندى » وهو يقتل شاربته ، ويسوى ما  
تهوش من شعيراته ، ثم أنشأ يستوضح النوتى ما توافر له ،  
على مر الأعوام ، من ربح الصيد .

فَقَعَمَ النوتى يردُ مَآكلِ الثُّبَرَاتِ :

لا يَكُنْ سَيِّدَى مَشغُولَ الْبَالِ بِشَيْءٍ ، وَلِيَأْخُذْ مُتَعَتَّهُ فِى  
الصَّيْفِ بَعْدَ السَّنَوَاتِ الَّتِى أَمْضَاهَا فِى عَنَتٍ وَاجْهَادٍ ...  
وَلِتَطْمِئِنَّ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى خَيْرٍ مَا يُرَآمُ ... وَلِلْحِسَابِ  
أَوَانٌ .

فتلاعب « طور أغلو أفندى » بِسِلْسِلَةِ سَاعَتِهِ مُؤَكَّدًا :  
حقًا ... حقًا ... ولكن لا بأس بأن أعرف الحساب على وجه  
الإجمال .

لا داعى لِلْعَجَلَةِ ... نُؤَجِّلُ ذَلِكَ إِلَى غَدٍ ... الصَّبَاحُ رِيَّاحٌ .  
- إِنْى وَاتَّقِ بِكَ ... وَلَكِنِّى رَأَيْتُ أَنْ تَشْغَلَ الْوَقْتَ بِمَجَادِفَةٍ  
الْحَدِيثِ ... عَسَى أَنْ يَكُونَ الْخَيْرُ قَدْ وَاتَانَا بَعْدَ سَنَوَاتِ الْجَدْبِ  
الَّتِى أَصَابَتِ الزُّرْعَ وَالضُّرْعَ .

- اطمئن يا سيدى ... أَسَانِيدُ الْحِسَابِ مُعَدَّةٌ .  
وَأَمْضِ « طُورُ أَغْلُو أَفَنْدَى » هُنَيْهَةً صَمَتٍ ثُمَّ أَمْرٌ يَدُهُ عَلَى  
جَبْهَتِهِ وَقَالَ لِحَارَسِهِ :

ذَكَرْتَنى ... لَمْ تَبْعَثْ إِلَى بَعْدِ شَرَاءِ الزُّرُوقِ ... فَأَيْنَ الْعَقْدُ ؟  
وَرَفَعَ الْأَحْدَبُ جَفْنِيهِ كَأَنَّهُ يَجْمَعُ شَتَاتَ ذَاكِرَتِهِ الْمُتَدَاعِيَةِ ثُمَّ  
أَجَابَ :

العقد ... ؟ نعم ... لقد تَسَلَّمْتَهُ من التاجر يومَ أَدَيْتُ بقيَّةَ الثمن ، لا شك أنه بين الأوراق مَصُونٌ ... ما حاجتك إليه سيدى والزورق فى حوزتك يصول ويجول ؟.

- وأين الرخصة ؟

- إنها عندى ... مَكْتُونَةٌ فيما أحفظُ من أسانيد .

ولماذا لا تكون فى الزورق ، حتى تُبْرِزَهَا لمن يعترضُون طريقنا من شُرطة الرُقابة فى المضيق ؟

- لقد أصبح الزورق معروفاً لكل الرُقباء ... وطالما اطلعوا على الرخصة فى فترة غيابك ... لم تعد بهم حاجةً إلى اطلاع جديد ... اطمئن يا سيدى ... وليَطْبُخْ خاطرُك من هذه الناحية .

- لا تنس أن تُرينى إياها .

- ذُكِّرْتَنى ، حماكَ الله ، يا سيدى ... لا بد من البحث عنها لتجديدها .. فقد أزِفَ موعدُ أداء الرسم المطلوب للسنة الجديدة ... سمعت أنهم رفعوا الضريبة السنوية على المركبات البخارية فيما رفعوا من ضرائب سنوية .

فما وعى « طور أغلو أفندى » حديث الضرائب حتى تراجع على مقعده ، وانفرج فمه عن تشاؤبٍ متراحبٍ ، كاد فكُّه ينخلع له ، ثم قال وهو يتمطى مُودَّعاً جليسه :

أحس خِذَرَ النعاس ... طاب مساؤك .  
 وجرَّ حُطاه يَنْقُذُ من الحديقة إلى القصر .  
 فشيعه النوتى بِبَصْقَةٍ عريضة قذف بها على الأرض ، ورام  
 مَقْعَدَه ، قاصداً فراشه ، تُشْمَلُه قشعريرةُ اشمزاز .

(٣٤)

لم تتوارد أيامٌ حتى اشتدت مطالب « طور أغلو أفندى » من  
 الزورق وتعددت ، وسمتْ همته إلى قيادته يديه ، يستمرئ ،  
 وهو يُوجَّهه الوجه الذى يرتضيه ، لذَّة تلك الرياضة المحيِّبة إليه  
 الأثيرة لَدَيْهِ .

وفى إحدى الجولات ، باغت « طور أغلو أفندى » صِفَه  
 النوتى حين أمره بالتخلَّى عن مقعد القيادة ليستولى عليه ،  
 متولِّياً بنفسه زمام الزورق .

ويَهتَ الأحدبُ ، فعمدَ إلى المراوغة يزُمُزِمُ :

المياهُ يا سيدى فى الخليج صعبةُ المراس ... تياراتُها  
 متضاربةٌ متقلبةٌ تستلزمُ الخبرةَ والكفايةَ واليقظةَ ... أخشى  
 عليك سيدى تَغْيِيرَ الماء ... ربما جَرَقْنَا التِيَّارَ ... فأوقعنا فى  
 حرج لا منجاةَ منه ولا سلام .

فانتفش « طور أغلو أفندى » وكأن كرامته خُدِشت ،  
 وشعوره استذل ، فتشدَّدَ فى قوله حازمَ اللَّهْجَةِ :

أنا بالماء عليم ... وعلى سلامة الزورق قدير .

وعاود الأحذب غَمَقَاتِهِ :

أيجذُرُ بسيدى أن يُتعب نفسه ، ويلوُثَ يديه بما تنضحهُ الآلهُ  
من زيتٍ ووضر ؟

وأضاف « طور أغلو أفندى » :

غيرُ مُهم ... الزورق زورقى وأنا بسلامته كفيل .

ونفض مكانه يُقِيلُ الأحذب عن مركز القيادة ، فتنحى له  
عنها صاغراً ، يُوغِرُ الحقدُ صدره على سيده ذلك الطاغية ، بيد  
أنه صَبَّغَ ملامحه بِمَسْحَةِ الرضا ، يوارى فى ابتسامة كاسفة ،  
ما يَعْتَمِلُ فيه من كُرهٍ .

وعكف « طور أغلو أفندى » يمارس القيادة على هواه ، غير  
مبال فى حِمِيَةِ نَشْوَتِهِ ، ما يتورط فيه من مأزق ، وما يتعرض  
له الزورق من ضرر .

وانطلق به فى المضيق يسوقه كمنحلةٍ موصولةٍ الحركة لا قرار  
لها ولا هدوء ... أنا هو ماضٍ إلى الصيد ، وأنا إلى النزهة ،  
وأنا آخرُ هو فى لِيَّاتِ الخليجِ لملم بدور الجيرة يحييهم على  
الشاطئ المعمور وهو هيمانٌ طُرُوبٌ .



(٣٥)

تابع « طور أغلو أفندى » لهوهُ بالزورق ، لا ضابط له ولا رادع ...

وضاق النوتى ذرعا بذلك الإلحاح المستبِد وتلك المحاصرة الرُعناء ، التى جعلت منه فأراً فى مصيدة لا يملك فيها من حرّية وانطلاق .

إن الأوامر تُمضّهُ ، إذ تجعل منه ركوبة مطواعة له « طور أغلو أفندى » يقسو عليها جُهد القسوة .

ليكن هو ما يكون ... ولكن الزورق ؟

يجب أن لا يمسّه من جرّاء تلك المغامرات الدائبة مكروه .

إن أعوزَ ربُّ القصر تبصّره ، فخليق بالنوتى أن يحتاط للزورق ويصونه من ضياع .

لا بد من عمل حاسم يُفسّح للزورق الحبيب فسحة راحة ومُهلة جَمَامَ .

وطفق الأحدبُ يروى تلك الأفكار ، بعُصارة قريحته ، ويتبين عواقبها بثاقب نظره ، وعيناه ضاربتان فى الأفق ، وصدرة يعلو ويهبط كأنه بحرٌ مَواج .

(٣٦)

ويوماً سالت شمس الأصيل على الزورق ، ماضياً فى رحاب  
 الخليج ، بين ضفتيه ، وقد ترك « طور أغلو أفندى » قيادته  
 إلى النوتى ، واسترخى على مقعد الشرف فى مؤخر الزورق ،  
 يُمتعُ النظر بالمضيق فى ثوبه الرشيق من قسامة وحسن .  
 فالتلال ناصعةُ الحُضرة تُعمُّ نواصيها دوحاتُ الصُنوبر ،  
 يسطع شذاها الفواح وتنبسط ظلُّها على المسالك والدروب ،  
 والحوافل على مراقبيها ماضية وكأنها على مدِّ النظر صغارُ  
 النمل لا تنفك غادية رائحة فى جدِّ ومضاء ، متخمة فى  
 جسمها المهول بصنوف الخيرات ، زاداً للمغانى الساحلية ، وقد  
 تلاحت جوانبها تلامس البحر فى تآلف وانسجام فكانها  
 الحورياتُ انشقَّ عنهنَّ اليمُّ ، فخرجن إلى الشاطئ للفتنة  
 والإغراء ، وانثنى الأحذب على مفاتيح الآلة البخارية يدير  
 هذا ، ويعرك ذاك منْهمكاً فى عبثه لا يعبأُ برَبِّ القصر بل يكاد  
 لا يُحسُّ له من وجود .  
 وبغلة تقطعت أنفاسُ الزورق ، وفترتْ نشطته وتبلدَ محرُّكه ،  
 فجمدَ فى مكانه تُدغدغه الأمواجُ ، فلم يتمالك أن يتعوجَّ  
 مسائراً دَفَعَاتِ التيار المتغيِّرة .  
 وتفزعَ « طور أغلو أفندى » وأشرأبُ بقامته يستوثق من  
 النوتى :

ماذا حدث ؟

ومكث النوتى يستخبر أجهزة الزورق المتعددة ، مظهراً دهشته ، وعلى ظهره تترجح حديثه كلما صدرت عنه حركة ، أو لَوْح بإشارة .

وعاد « طور أغلو أفندى » إلى سؤاله ، فلوى الأحدب عنقه وأقبل على سيده يجمع بوجه متطاول ينم عن حزن بليغ :

لا علم لى ... عين خبيثة أصابت زورقنا الجسور .

وتصيد النوتى قارباً يغالب الموج ، فسما بهامته يلوخ بيده وهو يقول :

خير لسيدي أن يغادر الزورق ويدعه لى أعالج إصلاحه .

- أتركك وحدك ؟ ... أفضل أن ألزمك حتى تفرغ من عملك وأتعرف ما حل بالزورق من فساد .

- لا يا سيدي ... أخشى أن يطول الانتظار .

وخف قارب النجدة ، وما عثم أن حمل « طور أغلو أفندى » إلى مرسى القصر تاركاً النوتى يسوس الموقف ، ويتدبر الأمر .

## (٣٧)

وتفشَّت الظلمة ...

وتراعى « طور أغلو أفندى » على مرساه يَدْرَعُهُ فى جيئة  
وذُهُوب ، عاقداً سَاعِدِيَّه خلف ظهره ، يَغْلِي كالمَرْجَل لا تهدأ به  
خُطاه ، وما انفك يدير أنظاره فى العَتَمَةِ ، وكأنه يُحاول أن  
يَمِزَّق مِنْ حوله سِتْرَ الليل .

وتباطأت الساعاتُ فى سيرها الكسِيع ، وربُّ القصر فى  
مقامه تَلْعَبُ برأسه الظنون ، راصدَ العَيْنِ لسارية الزورق ،  
عسى أن يراها وقد أومضَ منها المصباح المعهود ، مرهَفَ  
السَّمْعِ لما تبعثه الآلة من هدير .

وأخيراً تشاءب بابُ القصر عن الأحذب ، بادىِ الإعياء .  
فما أن تَبَيَّنَه « طور أغلو أفندى » حتى سَعَى إليه من  
أقصى المرسى ، مُهَرِّولاً فى خطوه ، يقول مكروبُ الأنفاس :  
أين الزورق ؟ ... ماذا جرى ؟

فأضاف النوتى وهو يمسح بيده الملوثة وجهه المُغْبِرَ :  
أخفَقَ كلُّ مجهود .

- وأين هو الآن ؟

- سقناه إلى مخزن هنالك ، وأسلمناه إلى صانعِ فَنِيٍّ يُعالجه .

- وماذا تبين به ؟

- سنعرف بعد الفحص .
- أأصابه تلف جسيم ؟
- لم أدر بعد .
- أيطول إصلاحه ؟
- أغلب الظن أن الأمر يتطلب مهلة أيامٍ غيرَ قليلة .
- وازدرد « طور أغلو أفندى » ريقه حانقا ، ثم سأل :
- متى نعرف على وجه الدقة ؟
- غداً ، أو بعد غد ...
- لماذا لا نستشير المتجر الذى اشتريناه منه ؟
- فحدق النوتى إلى « طور أغلو أفندى » وهو يقول :
- ألم تدر يا سيدى ؟
- بماذا ؟
- بأن المتجرَ أفلس وأغلق أبوابه .
- أحقاً ؟
- بل إن صاحب المتجر لم يتحمل صدمة الإفلاس فأصابه  
القالجُ وقضى نحبّه على الأثر ، فتشرد عماله ، وتقطعت بهم  
السُّبل .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

ومكث « طور أغلو أفندى » يضرب كفًا بكفً على حين  
استرسل النوتى فى ثرثرة يقول :  
لو ذهب سيدى إلى المتجر لشهد مكانه حانوتاً يبيع حاجيات  
الأطفال من حلوى ولعب وكساء .

(٣٨)

استشعر « طور أغلو أفندى » ضيقاً يزداد به ، وكأنما  
تتوضّع فى أفق حياته ظلال قاتمة تؤذن بعاصفة وشيكة  
الهبوب .

وأن لقارب النوتى المتهدّم أن يأخذ مكانه من المرسى عوداً  
على بدء مزهواً بمجذافه المتآكل وطلاته المطموس ، وسماته  
المضغّعة ، فلا يجد رب القصر بدءاً من أن يتودّد له ، وأن  
يلتمس منه العون والترفيه .

إن المصطافين على شاطئ المضيق ، لا يحلو لهم الاصطياف  
إلا إذا ضمتهم أحضانه ، وتقلّبوا بين أعطافه ، تنزّهاً فى  
الزوارق ، وانغماساً فى مياهه ، واستمراء لما يسبّح فيه من لحم  
طرى .

كان « طور أغلو أفندى » يشهد ركب الزوارق فى رتّوعه  
على متن العباب ، فتأكله حسرة ، ويميل على النوتى يسأله

فى أمر زورقه ، متى يتم إصلاحه ، ليكون له فى الركب مكان ملحوظ ؟ فلا يظفر من الأحذب إلا بكلماتٍ معسولة ، تهدئ من روعه ، وتُفسح له أملاً قريباً .

ويطالعه النوتى يقول فى صوت لين المكاسر :

كن صبوراً يا سيدى ... لا تتعجل مجىء الزورق ... أتريد أن نقضى عليه إن نحن أجريناه قبل أن يكتمل برؤه وتعود إليه العافية ؟ ... لكل شئ يا سيدى أوان يكتمل فيه .

ولا يحظى هذا الحديث من « طور أغلو أفندى » إلا بهزة من رأسه وهو يتهاّل على شاربهِ قتلاً ، وقد منعه الحزن الثّرار .

( ٣٩ )

وفى أمسية استدار قمرها واكتمل / تجلى « طور أغلو أفندى » على مرسى قصره ، ومن فوق الهلال الوضى ، متخذاً مقامه ، خالياً بنفسه يستمرئ لذّة السكون الشامل ، والهدوء المريح ، تقطعه عليه فى القينة بعد الفينة أنوار السفن ، مخترقة المضيق ، على حين شعر هو بنفسه تتصل بسرائر الكون وتذوب فيها وقد خدر عقله واستنام فكره ، وانطلقت روحه تستشيف من حوله جمال الطبيعة وفتنة الوجود .

وفيما هو هائم فى ذلك الملوكوت الساحر ، أثاره عنه صوت

من البحر يناديه ، عرف فيه صديقاً عزيزاً عليه ، فرحّب به ودعاه إلى مشاركته تلك الأُمسية السّجّواء .

ودار الحديث بين الصديقين ، فى شئون شتّى ، كلّ منهما يبيث حَديته ذات نفسه ، وينفضُّ له جُعبَةَ الأخبار .

وساقَهُمَا السُّمرُّ إلى النوتىّ الأحذب ، حارسِ القصر ، فامتدحه « طور أغلو أفندى » وأطنب فى إطرأ وفائه وأمانته .  
رمال عليه الصديق يرْمِي فى أذنه بتلك الكلمات :

لا تُسْرِف فى حسن الظن بالناس ... الأقاريل فى شأن حارسِكَ كثيرة لو ألقينا بِهَا للبحر لما بقيت فيه رُقعةٌ لِسَابِح .  
وانتفض « طور أغلو أفندى » يُزْمَجِر :

لا ... لا شك إنها وشاياتٌ وضيعةٌ دُسَّت عليه ...  
وشائعاتٌ مغرِضةٌ يُراد بها الوقيعَةُ بينى وبينه .

وطوّح « طور أغلو أفندى » بيده ، مستنكراً ما وَعَى وهو يُواصل القول :

أوكُلُ ما يُقال فى شأن الناس حقيقةٌ تستوجب التصديق ... لا ... ولا ... ولا ... الناس ، يا عزيزى ، طَبَعُوا على أذِيّةٍ وشرٍّ .

- أنت مُحِقٌّ ... ولكن ألا يَجْدُرُ بِكَ التَّقصى والتعرفُ حتى يتكشَفَ لك ما خفى عنك ؟



- أنا واثق به ... وعن تصرفاته عليم خبير ... ليس هناك ما أجهله عنه .

- أنت وشأنك ... لا أرغب أن أكرهك على شيء .

ثم حُدج الصديق ساعةً معصمه ، فنهض يهيمس بقوله :  
لقد أوغل الليل ... حان لى أن أودعك .

وأمسك بكفه يشد عليها مُودعاً ، فأحس بها باردةً برودة  
الثلج ، تنتظمها رعشة ، فغمغم يهدئ من روع رب القصر :  
لا تعباً بما نقلت إليك ... طالما وقع الناس فى الناس ...  
أنت بحارسك أدرى .

فزمزم « طور أغلو أفندى » :

أوحسبتنى سفيها أهله أترك زمامى إلى نوتى أحذب يتلاعب  
بى ا ... إن عيني لراصة له لا تغفل عنه ؟

وانصرف الحدين ، وبقى « طور أغلو أفندى » وحيداً على  
المرسى ، تعنف به الظنون .

وغامت الدنيا لعيني « طور أغلو أفندى » ونهض يذرع  
المرسى على غير هدى ، شاعراً بأنفاسه تحتم ، وأوصاله ترجف  
كأنما مسته حمى .

لم يَعُدْ ذلك الليل بسكُونِه السَاحِرِ وهَدْوِيَه السَابِغِ ، إلا مارداً  
انشقَّ عنه البحر ، يَجْثُمُ على صدره ، ويأخذ بخناقِه ، ويملاً  
عينيه ظلمةً وَوَحْشَةً .

إنه فى حاجة إلى الضياء ، إلى نُور الصبَاح ، يستهديه جَلِيَّةُ  
الأمر ، ويجلو له وَجَهَ الحقِّ .

ولعبتْ برأسه الحَيْرَة ، وشقيت به قدماءه ، وهو يَتَنَقَّلُ بين  
المرسى ومنزلِ الحراسة يَهُمُّ بأن يَسْتَدْعِي حارسَه الأَحْدَبَ ،  
يُقْضَى إليه بما نَمَا إليه من نَبَأِ أليم .

ولكنه لم يستقر على رأى ، فانتهى به المطافُ إلى مَرَقْدٍ  
قَلِقٍ ، ونومٍ مُتَقَطِّعٍ ، وأضغاثُ أحلامٍ ، كأنها وخزُ الإبر .

#### ( ٤٠ )

ومنذ تلك الليلة لم يَعُدْ لـ « طور أغلو أفندى » هم إلا  
محاولةُ التَّعَرُّفِ على شأنِ حارسه فى أناةٍ وتروٍّ .

لم يكن حديثُ صديقِ الليلة المعهودة هو الحديث الوحيد الذى  
نال من النوتى الأَحْدَبَ ، فقد خاضَتْ فى سيرته الألسُنُ تعزو  
إليه أسوأ ما يُعْزَى إلى حارسِ قصرٍ موثوق به .

ولاحقت الشائعات « طور أغلو أفندى » كأنها مطرقة تهوى  
على سندان ، فلا تلبث أن تحدث فى نفسه دويأً مخيفاً ، يرجف له .

وزاده بلبلة واضطراباً أن النوتى لم يف بوعده فى شأن  
المحاسبة ، فما زال ربح الزورق من الصيد خلال السنوات  
الخوالى سرّاً فى ضمير الحارس الأمين .

وقرّ عزمه أن يجابه الأحدث بسؤاله .

وإبان الغروب ، فى يوم اشتدّ قبظه وثقل ، قرّ عزم « طور  
أغلو أفندى » على مصارحة النوتى بجلية ما تجرى به الألسن  
من شائعات وأقاويل .

بيد أنه أحجم وتهيب .

ويحه ...

أيعجز أن يكشفه بما يساوره من ريب وشكوك ؟  
أيسلم نفسه إلى ذلك النوتى يضلّكه ويغرر به ، دون أن  
تكون لديه جرأة الضرب على يده ، يستخلص منه حقه ؟

إن المال ماله ... وما ينبغي له أن يتهاون به ويُفِرط فيه .

لو أن له ولداً خرج من صلبه تطاولت يده إلى صفوة ماله  
بالعبث والتبديد ، لكان خرباً أن يبتزها بترا دون أن يرحمه  
ويُشفق عليه .

وملكت « طور أغلو أفندى » ثورة عارمة ، تنتظم أوصاله ،  
فلم يتمالك أن نادى حارسه .

وانتظر يَقَرَّع الأرض بعصاه .

ثم كرر دعاءه .

وحضرُ النوتى .

وواجهه « طور أغلو أفندى » بقوله :

يزعمون أنك تَثْرِى على حسابى ... وأنى لستُ إلا مَطِيَّةُ  
تُحَقِّقُ بها رَغَائِبَكَ وَمَارِكَ .

وقاطعه النوتى وقد تخاذل صَوْتُهُ فتلعثم يقول :

أستغفر الله ... قُطِعَ لسانُ من يتقولُ عليك بالسوء ...  
سعادتك فوق رأسنا .

واحتدَّ ربُّ القصر وعلا صَوْتُهُ يهدرُ :

يقولون إنى مُغْفَلٌ ... وإنى طرطور ... وإنك تخذعُننى ...  
وتَغْتَالَ مالى .

واسترد النوتى بعض هُدُوته ، وجنح إلى مُراوغةٍ ومُداورةٍ  
يقول :

هَوْنٌ عليك يا سيدى ... تَبَيَّنْ منى الأمر ، واستوح الحقيقة  
... لا تسمع للوُشاةِ والحاقدين ... إنى أقوم نحوك بما يُوحى به  
ضميرى ... أتوخى ما فيه مُصلحتك ... واللَّهُ على ما أفعل  
رَقِيبٌ .

- ثمة أعمال قمتَ بها إذن ... فماذا صنعت ؟

- الخير كل الخير .

- يزعمون أنك تسرقنى ... تنهينى ... وأن ثقتى بك دُخانٌ  
فى الهواء ... لا يجدر بى أن أمنحك إياها .

وشمخ النوتى بأنفه وسما برأسه يقول :

ظلموا واعتدوا ... أنا لم أسرق ... أنا شريف ... إن كنت  
فى رأيك لصاً فلا يسعنى إلا الانقطاع عن خدمتك وإخلاء  
السبيل لمن هو عندك وعند الوُشاة الحاقدين حافظٌ مكين .

وصرخ « طور أغلو أفندى » ملوحاً بعصاه :

تهربُ من الميدان قبل أن تُقيم الدليلَ على براءتك ؟!

وتعاظم النوتى يقول فى غَيْرِ مبالاة :

أَوْ مُذْنِبٌ أنا لأبرئُ ساحتى ؟! ... لا عليك يا سيدى ... لن  
يكون الحساب عسيراً .

- علينا إذن بالأسانيد وقوائم الحساب .

- غداً أخرس لك السنة السوء .

- بل الآن ... الآن الحساب ... الساعة ... لا أحتمل ..  
كفانى تسويفاً ومراوغةً .

- سأوافيك بما ترغب ... أمهلني إلى غد لأجمع أوراقى ولا  
أتعبك فى فُحصٍ ومراجعة .

- لا ... الآن ... على بأوراقك .

وحمل النوتى قدميه حملاً على أن تخطوا به إلى مَعْتَاه  
ليَجْلِبَ إلى سيده ما رَغِبَ فيه من أوراق .

(٤١)

وعكف « طور أغلو أفندى » على الأسانيد يتفحصها  
والنقمة تملأ ما بين جَنْبَيْهِ .. أوراق بالية مطموسة نهكها الطيُّ  
والنشر ، فلم تُسْفِرْ أو تَبِين .

وتفرس فيها ملياً ، وهو بين مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ ثم سما برأسه  
يسدُّ نظراته إلى النوتى ، وقد احمرَّت حدقتاه وانتفش شاربه  
يهتَزُّ من حَنَقٍ ، وجَار :

زعموا أنك أدرت قصرى لحسابك ... جعلت منه خانا ...  
الحجرة فيه تسكن لقاء أجْرٍ معلوم !

وأجاب النوتى يقول فى غير ترددٍ ، مسترخى الأعصاب ،  
رائقُ النَّبَرَةِ :

على حقِّ هم فيما أشاعوا .

وتحيرُ « طور أغلو أفندى » على مَقْعَدِهِ ، واحتد جرسه قائلاً :

إذن ليست الأقاويل مجردة شائعات .

- لا يخشى الحق إلا لصاً ... أنا شريف .

وزأر ربّ القصر متَهَكُّماً :

أنت شريف ؟! ... أين ذلك الدخل من الإجارة ؟ ... لا  
أدرى له أثراً فى قوائم الحساب .

ورام مكانه ، واستدار يفكر برهة وهو عاقِدُ ذراعيه على  
صدره :

أجْدَبَ عقله فلم تسنح فكرة الخان له ؟ ... إنها لا شك  
تجارة مريحة ... رزق حلال ومكسب طيب ... سوف يُعاوِدُ  
النظر فى ذلك المشروع العظيم ... عليه الآن تصفية حسابيه مع  
ذلك ... ذلك الثعلب اللعين .

والتفت إلى الأحذب يقول ، وهو يحُدُّ فيه النظر :

وما يُدرينى لعلك اتخذت من القصر مَبَاةً للمفاسد ومَأْوًى  
للخُلَعَاءِ والمُاجِنِينَ .

فخفض التوتى رأسه متصنعاً الورعَ يَهَيِّمُ :

حاشا لله ... قصرُك مصونٌ مكنونٌ ... ولكن ... ألا يهدأ  
سيدى حتى يتبين الأمر عسى أن يفتنَّ بصواب ما صنعت ؟

فهزُ « طور أغلو أفندى » رأسه مستخفًا بما سمع وغمغم في  
سخرية :

- هات ما عندك !

- احتاج القصر إلى رم ورأب ... مياه المطر كادت تُهلكه  
... أعملتُ فكرى ... قادننى التبصرُ إلى أن ألجأ إلى هذه  
الوسيلة حتى لا يغرمَ سيدى من ماله بارةً ... والتدبيرُ نصف  
المعيشة .

وكادت جهامة « طور أغلو أفندى » أن تنقشع ، وثقتُه  
بالرجل تُعاوده ، بيد أنه أمسك بالورق يراجعه ، وإذا بسند  
بخص الزورق يبرزُ له ، فاستردَّ تجهُّمَهُ واختنق صوته يُجمِّم :

ماذا أقرأ ... أَللزورق نفقات ؟

- نعم .

وأوشك « طور أغلو أفندى » أن ينفجر ، غير أن النوتى  
استمهله يقول :

الاتفاق بيتنا ينص على أن أقوم بالصيد ... أنفق ثمن مبيعه  
فى تعمير ما أفسد البحرُ منه ... ثمنُ الصيد لم يفِ بما لزم  
الزورق من صيانة .

- أجذب البحر طوال الأعوام التى غبتُ فيها ؟

- لم يجذبُ ... ولكن الصيد حظوظ ... كانت السوق فى كساد .



خلاصة القول أننى خرجت من المعركة صِفْرَ اليدين .  
- أيها الصائد الذى لم يَسْمَحْ بمثله الزمان !  
- هذه إرادة الله .  
- بل هذه لصوصية ... أفاهم أنت ... ؟ لصوصية ليس لك  
فيها نظير .  
وتنمرُ النوتى يقول :  
لستُ لصاً ... ماذا سُرقتُ منك ؟  
وزعق « طور أغلو أفندى » :  
أنت مطرود ... مطرود ... لا بقاء لك معى بعد اليوم .  
- سبحان الله ... أعلى هذا النحو تستطيل على ... أبهنا  
تكافئنى على إخلاصى لك ؟ ... الله هو المكافئ ... حسبى  
الله ونعم الوكيل .  
وقمادى رب القصر يَهْدُر :

بل حسبى تلك الأوراق المزورة ... سوف يستضيفك من  
أجلها مَحْبِسُكَ ... لأمثالك شُيدت السجون .

(٤٢)

وانبعث « طور أغلو أفندى » كالموجة المزيّدة ، يتوخى منزل

الحراسة ، لينفذ أمره إلى أسرة النوتى بالجلء عن المنزل  
والتخلى عن الخفارة ، وهو يصرخ بصوت ذبيح :

من كان له عائل مثل ذلك اللص ... فليس له عندى مقام ،  
فلترحلوا جميعاً أيها الطامعون المتآمرون .

وكان ابن الأحذب - ذلك الفتى الحداد - مشغولاً بآلة بين  
يديه يحاول إصلاحها ، فاحتد عليه ربُّ القصر يقول :

أما أنت فلتذهب بحدائدك إلى السعير ... لعلِّم أشياءك  
وارحل ... ارحل على الفور .

لم يتوقع الفتى أن يسمع من « طور أغلو أفندى » ما سمع؛  
فقد عهده حفيماً به ، عطوفاً عليه ، مشجعاً إياه بقول رحيم ،  
فوقف واجماً يصعد فيه نظره دون أن يتبس .

وتقدم « طور أغلو أفندى » يركل الآلة بقدمه وهو يذمّم :

أما فهمتَ بعدُ أيها الأبله ؟ ... أغرب أنت وحدائدك عن

وجهى ...

وأذهلت الفتى صدمة المفاجأة ، فاكفهر وجهه ، وقردت  
نظراته ، وتحرك نحو رب القصر يأخذ بخناقه .

فلما أحس « طور أغلو أفندى » من الفتى دلائل الشر ،  
تراجع فى تهيب ، على حين انطلقت زوجة الأحذب ، تصدُّ ابنها  
عن الانتفاع وهى تكرر :

لا ... تعقل ... إياك والتهؤُر .

فاعودت « طور أغلو أفندى » شجاعته ، وإذا هو يزأر :

ستخرج من هنا ... ستخرجون جميعاً .

وخفُّ النوتى من أقصى الحديقة يسعى ، فتطاول عليه ربُّ  
القصر بقوله :

أما أنت فبينى وبينك حساب عسير .

ونفر « طور أغلو أفندى » عن منزل الحراسة يعلو بصدرة ،  
ويتشامخ بأنفه كأنه القائدُ المظفر ، خرج من المعركة يتيه بغلبةٍ  
وانتصار .

( ٤٣ )

وأخلى « طور أغلو أفندى » عهدة النوتى من القصر بعد أن  
تفقدّه وأحصى ما فيه .

ولما اطمأن إلى محتوياته ، من رياش وتحف وألطف ، قال :  
بقى الزورق ... بنا إلى مكانه أتسلمه .

- أى زورق ؟

وتفرّس فيه « طور أغلو أفندى » ملياً ، مشلول اللسان ،  
مخنوق الأنفاس ، وكأن الأرض تميد به ، فتهاوى على المقعد  
لاهما يُغمغم :

ألا تعرف أى زورق ؟

- مالى وللزورق ؟ ... هو حيث يصلح ... وسيوافيك به  
الصانع بعد أن يُتِمُّ مِهْمَتَهُ فيه .

- لا بد أن تأتى لى بالزورق من ساعتك .

واستقبله الأحذب بنظرة استخفافٍ يقول :

كيف آتيك به وهو مفككُ الأجزاء ... أأحمله لك فى صرة؟  
... صبرك يا سيدى ... سيجيئك الزورق مُجدِّداً على ما يرام .

- أين المصنع الذى أوْدَعْتَهُ إياه ؟

- مالك وللمصنع ؟ ... لقد أثبأتهم بعنوان القصر ...  
وسيوافونك به ... فلا تعجل .

- هات قاربك وامض بى إلى المصنع لأتسلم الزورق .

- لقد أخليت عهدتى ، فدعنى وشأنى أكسب رزقى ورزق  
عيالى ... أتريد أن تعطلنى يَوْمَى كله ؟

- الزورق فى عهدتك ولا بد أن تسملىنى إياه .

- غداً أحضر لهذا الأمر .

- بل اليوم .

- اليوم يوم الأحد ... يوم الراحة ... المصانع فى عطلة .

فاستشاط « طور أغلو أفندي » غضباً ودمدم :

لن أفلتَكَ حتى تُعيدَ إليّ الزورق .

- لا زورق لك عندي .

- أنت لص .

- احفظ لسانك ... أنا أشرف من كل إنسان .

- سأسوقك إلى السجن .

فكسر له التوتى عينه وهو يتلعب بأصابعه ، وقال لسيده  
بالأمس :

إن كان عندك إثبات فأبرزه .

وجنّ جنون « طور أغلو أفندي » وما لبث أن هجم على  
التوتى يوسعه لكماً ولكزاً ، غير أن الأحذب أفلت منه إلى باب  
القصر ناجياً إلى الطريق .

فتبعه « طور أغلو أفندي » شاهراً عصاه ، متعثراً في جرمه  
الثقيل ، يجاهد في عُسْر اللحاق به وهو يقول في صوت حامي  
الجرس :

إلى اللص ... النجدة ... إلى اللص ... إلى اللص ... إلى  
الرص .

( ٤٤ )

اقتحم « طور أغلو أفندى » مخفر الشرطة ، ووقف أمام  
المحقق لاهئاً بدلى بأقواله ، متهما النوتى بسرقة الزورق  
والاستيلاء عليه .

وسما المحقق يتفحصه فإذا حياله عينٌ متورمة ، وشاربٌ  
مُبَعَثٌ غَيْرُ مصقول ، ووجه محنقٌ شوّهته التجاعيد والأخاديد  
وكان الرجل حطامُ إنسان بَغَتْ عليه الأيام ، ولسانٌ عَيِي كلسان  
مشلول ، لا يُفصح إلا عن قوله :

إنه لص ... لص وضع ... زورقى ردّوه إلى ... رحمكم  
الله .

ونطق المحقق يقول وهو ينقل حبات مِسْبَحته :

أرجوك ... أريد الوقائع ... الوقائع مجردةٌ من كل تعليق .

- لقد سرقَ الزورقَ ... هذا فوق ما كان من جنائياته على  
القصر ... أجزّ حجراته فى غَيْبَتِي عنه ... واتخذ من الحديقة  
بؤرة عبثٍ وإفساد .

وابتسم المحقق يقول :

نبدأ بالزورق ... أعندك من الوقائع الخاصة به مزيدٌ .

فلوّح « طور أغلو أفندى » بيده وغمغم :

- ألم يكف هذا كله ؟ ... إن الرجل اغتال مالى واستغل  
قصرى ولم يحفظ الوديعة ولم يضمن الأمانة ... وها هو ذا قد  
أخفى الزورق ... أبعد ذلك زيادةً لمستزيد ؟

فمد المحقق ذراعه ، وجمع أصابعه وهو يشير إلى الشاكى  
المُحَقَّق أن يهدأ ، ثم قال له :

لكى تأخذ القضية مجراها ، عليك أن توافيني بسند ملكيتك  
للزورق ، وبرخصة إجرائه فى البحر ، وبما عسى أن يكون بينك  
وبين النوتى من تعهدات .

وما سمع « طور أغلو أفندى » حديث المستندات والتعهدات  
حتى تخاذلت الكلمات على شفتيه ، وأخذ يرنو إلى المحقق فى  
حيرة وبله ، وأخيراً نطق بقوله :

اسألوه ... الأوراق معه ... أتشكون فى صحة روايتى ...  
الزورق زورقى ، اشتريته بحر مالى ... أو ترانى أفترى عليه  
الكذب ... الناس كلهم شهود على صدق دَعَوَاى .

وضاق المحقق « بطور أغلو أفندى » فحدجَه يقول وعلى  
شفتيه ابتسامَةٌ عَجَبٌ :

ماذا تريدنا أن نضع ؟ ... أنسأل اللص عن مستندات تَديِنُهُ؟  
فارتج على رب القصر ، ووقف حائراً يَغْشَاه صمتٌ .

وأشفق عليه المحقق ، فقال له فى رفق :

يخيل إلى أنك مُجهد الآن ... لترجئ التحقيق حتى تبحث  
عما طالبتك به ... الحصول على هذه المستندات أمر لا بد منه .  
واستدعى المحقق أحد أعوانه من رجال الشرطة وأمره بأن  
يَصْحَبَ « طور أغلو أفندى » حتى يركب إلى قصره .  
ثم ودّع ربّ القصر بقوله :

إنى فى انتظارك وقتما تشاء .

ثم تناول إضمامة التحقيق يطويها فى رفق .

وانصرف « طور أغلو أفندى » يجرّ قدميه ، منهاراً  
الأعصاب ، لا يُحسِنُ المشى ، وعلى عينيه غشاوة محجبٌ عنه  
وجه الطريق .

( ٤٥ )

لقى النوتى فى مَحْبَسِه - أياماً وليالى - ألواناً من الإهانة  
والتعذيب أريد بها حملُه على الإقرار والاعتراف ، لكنه جأه  
مصيره فى احتمالٍ وصبر ، فلم تُجدِ معه حيلة ولم تلن له قناة .  
وكانت له فى تلك الأيام والليالى العاصفة عينٌ باكية ،  
يستدر بها الرثاءَ والإشفاقَ ، وقلبٌ طروبٌ يحفل بالأمانى  
الرطاب .



وطالت وقفاتُه بين يدَي المحقق وفي نظراته براءةٌ ومُسْكَنَةٌ ...  
وعلى لسانه ضَرَاةٌ وتذَلُّلٌ .

ولم يخرج المحقق منه إزاء ما واجهه به من تهم إلا بقوله :  
رحمةٌ بى يا سيدى ... لقد أَلْجَأْتَنِي الحاجةُ إلى أن أقبل  
العمل فى قصر ذلك السيد الغريب الأطوار ... ولقد لقيت من  
استبداده وطُغْيَانِهِ الأمرين ، حتى عجزتُ آخرَ الأمر أن أسايره  
... فاستعفيتُه من مواصلة العمل معه ، ولكنه يأبى إلا أن  
يَرْمِيَنِي بالتهمة الشنعاء ، ويَخْلُقُ من حولى هالةً من الأباطيل ،  
ليبرغمنى على معاودة السير فى ركبِهِ ، أو ليُضَيِّعَ حَقِّي فى  
مكافأتى عنده على سابق خدمتى له ... ولا يخفى عليك يا  
سيدى المحقق أن رب القصر لهو من هؤلاء الذين يَبْغُون على  
حقوق أمثالنا من المساكين والفقراء ... ياللَّه من أولئك الذين  
يريدون أكلَ حقوق الضعفاء المحاوِجِ !

- جميل كلامك ... لكن ما رأيك فيما أدلى به الشهود  
وهم ممن لهم شأن واعتبار ؟ ...

- لم يسبق لى بما قالوه علم ... إنهم يظاهرون من هو على  
شاكلتهم وإلاَّ لشخصه ومجاملته لصُحْبَتِهِ ... أتراهم يابون  
دعوته أن يكونوا شهداء له على بحق أو بغير حق ؟ أو كم  
يكفكم ما أبرزت من مستندات ملكية ابتنى للزورق ؟

وينُحَرِّطُ النُوتَى فِى بَكَاءٍ وَنَشِيجٍ ، وَيَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ تَلْتَمِسَانِ  
مَعُونَةَ السَّمَاءِ . وَهُوَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ « لَطُورَ أَغْلُو أَفْنَدَى » مِمَّا  
رَمَاهُ بِهِ مِنْ اقْتِرَاءٍ .

(٤٦)

تَرُدُّ « طُورَ أَغْلُو أَفْنَدَى » عَلَى مَكْتَبِ الْمَحْقِقِ فِى صَحْبَةِ  
مَنْ عَوَّلَ عَلَى مَشُورَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ مِنَ الْمَتَسَكِّعِينَ عَلَى أَبْوَابِ  
دُورِ النِّيَابَةِ وَالْقَضَاءِ يَعْرِضُونَ خِدْمَاتِهِمْ الْقَانُونِيَّةَ بِالْأَجْرِ الزَّهِيدِ ،  
لَكِنَّهُ كَانَ يَعُودُ كُلَّ مَرَّةٍ ، وَقَدْ شَبِعَتْهُ خَيْبَةٌ وَإِخْفَاقٌ .

(٤٧)

وَانْبِلَجَ صَبْحُ يَوْمٍ وَقَدْ أَمَرَ الْمَحْقِقُ بِإِخْلَاءِ سَبِيلِ النُوتَى بَعْدَ أَنْ  
لَمْ يَقْتَنِعْ بِكَفَايَةِ الْقَرَائِنِ وَمَا رَدَّدَهُ الشُّهُودُ فِى قِيَامِ أَرْكَانِ  
الْإِتِّهَامِ ، وَتَوْفِيرِ الْأَدْلَةِ عَلَى إِدَانَةِ الرَّجُلِ فِيمَا رُمِيَ بِهِ مِنْ دَعْوَى  
السَّرْقَةِ وَالْإِغْتِصَابِ ، فَاسْتَقَرَّتْ إِضْمَامَةُ الدَّعْوَى فِى زَاوِيَةٍ مِنْ  
زَوَايَا مَكْتَبِ الْمَحْقِقِ رَئِثًا يُتَاحَ لَهَا قَبْسٌ جَدِيدٌ يَبْعَثُ فِيهَا حَقِيقَةَ  
الْحَيَاةِ .

وَخَرَجَ النُوتَى مِنْ مَحْبِسِهِ يَتَلَقَّى نَفْحَاتِ النُّورِ وَالْهَوَاءِ ، وَقَدْ  
تَرَاعَتْ فِى مُحِيطَاتِهِ « قُورْتُونِيَه » - ابْنَتُهُ الْحَبِيبَةُ - رَافِلَةٌ فِى  
ثُوبِ الْعُرْسِ ، تُزَيِّنُ صَدْرَ الزُّورِقِ الْبِخَارَى الَّذِى يَحْمِلُ اسْمَهَا  
الْكَرِيمَ ، وَقَدْ تَهَادَى بِهَا عَلَى جَنَبَاتِ « الْبُوسْفُورِ » ، فِى طَلَاءِ  
بَسِيدٍ ، وَكَأَنَّهُ هُوَ الْآخِرُ عُرُوسٍ فِى بَهَاءٍ وَرُؤَاةٍ .

{ نَمَتْ }

تحية

من صاحب زورق الأحلام

إلى

أستاذه الكبير اللغوي الضليع ، الأديب الفنان القدير

الأستاذ محمد شوقي أمين العالم

عضو مجمع اللغة العربية .

(١١)

مات الرجل والرجال قليلٌ

هذا لعمرى خطبٌ جليلٌ

\* \*

اختاروا لك من أسماء النبی الكريم

« محمد » « أمين » فكان لكُنيتك التكریمُ ، عینُ التكریم

\* \*

سموتَ باسميهِ ، عليه السلام ، على باقى العالمين

وشرفَ قدرُك بهما على سائر المؤمنين

\* \*

أضافوا لتسميتك « شوقى » ولقبوك « بالعالم »

هما عنك الإفصاحُ وإليك الإشارة ؛

لكنت بشوقى للحب العلامة ، « وبالعالم » للعلم بين الشارة

والإبانة

\* \*

أكلُ « شوقى » عبقريُّ النزعة فصيحُ البلاغة والبيان ؟؟

« فشوقى » أميرٌ للشعراء « وشوقى » أميرٌ للكلمة ، والتبيين

\* \*

(٢)

لم يمض على رحيلك إلا أيام  
فإذا الشوق إليك يضطرم بمزيدٍ من هيام  
\* \*

الفصحى أنهكتها لغيابك الدُموع  
وأطقات في لواعج أساها وفعج الشموع  
\* \*

العروض نعاك في فؤادٍ مكلوم  
والبلاغة ناحت لفقدك في شجنٍ محموم  
\* \*

الشريرة الغراء هزتها وفاتك  
فنشرت أزهير الرُحمة على ناووس منامك  
\* \*

قواميس العربية تسربت لهجرك بالسواد  
كأن الحزن كلماتها ، انفرطت على السطور كأنها الرماد  
\* \*

كم نَاجَيْتَهَا وَنَاجَتْكَ فِي هَمَّاتٍ وَمَسَرَاتٍ  
فَكَانَتْ وَكَتَتِ الْحَبِيبَ الْأَنْيَسَ عَلَى مَدِّ السَّهَرَاتِ

\* \*

سَاطَتْ عَلَيْهَا أَضْوَاءٌ كَاشِفَةٌ تَسْتَنِيضُ مَعَانِيَهَا الْمُتَنَوِّعَةَ  
أَسْفَرَتْ لَكَ رَاضِيَةً عَنْ وَجْهِهَا فِي مَقَاصِدِهَا الْمُتَكَلُّونَةَ

\* \*

لَمْ تَبْخُلْ عَلَيْكَ بِأَسْرَارِهَا  
تَمَكَّنْتَ دُونَ عَنَاءٍ مِنْ سِيرِهَا

\* \*

غُصَّتْ فِي أَحْشَائِهَا تُعْمَلُ فِيهَا مِبْضَعُكَ  
فَالْتَقَطْتَ مِنْ بَطُونِهَا لَأَلِيَّهَا بِمِلْقَطِكَ

\* \* \*

إِنْ تَمَنَّعْتَ عَلَى غَيْرِكَ فِي إِبَاءٍ وَارْتِفَاعٍ  
انْبَسَاقَتْ لَكَ مُدْعِنَةٌ كَأَنَّهَا سَبِيَّةٌ مَطْوَاعٌ ،  
فِي غَيْرِ خَجَلٍ وَلَا امْتِنَاعٍ

\* \*

فتراقصت فى مدلولاتها مُسفرةً  
تزيدك تعلقاً بعشقها فى أشواق المعرفة

\* \*

أبحرت بصُحبَتِها فى سفينةِ الأدبِ الحالية  
تُمَقُّ منها الرواية والقصيدة والتمثيلية الشاذية

\* \*

كنت تنتقى أفصحها ، كصائعِ الحلى ، يصوغُ من جواهر اللغة  
الكلمة المناسبة

ليس لها فى الحديث بين الكلمات كلمةٌ مرادفة تحتل مكانها  
مناقسة

\* \*

استقبلتْ سَفِينَتَكَ من اللغة بِحَارٍ من أمواج كالجبال عاتيةٍ من  
صعابها

حاورتها فى إحكامِ تُجَنَّبُهَا ، تجنبَ التوتى الفطن ، شعاب اللحن  
المهلكة لا تصطدمُ بها

\* \*

سُقَّتْهَا بَيْنَ الْأَمْوَاجِ فَارِداً أَشْرَعَتْهَا إِلَى رَحَابِ السَّلَامَةِ الْهَادِيَةِ  
نَائِيّاً بِهَا عَنْ شَاطِئِ الْخَطَا بِرِمَالِهِ الْمَحْرَقَةِ وَجَنَادِلِهِ الْعَادِيَةِ

\* \*

لَمْ تَجْنَحْ عَلَيْهِ تُسَلِّمُهُ زَادُهَا مِنْ كُنُوزِهَا الْبَاهِرَةِ  
زَادُهَا : جَمَلٌ رَائِعَةٌ ، وَتَعَابِيرٌ نَاصِعَةٌ ، تُضَوِّي فِي رُوعَةٍ  
كَلِمَاتُهَا الزَّاهِرَةِ

\* \*

جَلِيَّتُهَا مُشْرِقَةٌ فِي ثَوْبِ مُحْكَمِ التَّفْصِيلِ أُنِيقُ  
يَتَضَرَّعُ مِنْهُ أَرْيَجُ نَفَاذُ ، مُسْكِرُ الرِّحِيقِ

\* \* \*

(٣)

كَنتِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُلْبَسَ الْفُضْحَى رِداً لِفِكْرِهِ رَجَاءُ الْمُسْتَعَانَ  
تَوَلَّفَ مِنْ بِلَاغَتِهَا كِسَاءً مُلْتَحِمَ النَسِيجِ ، مَزْرَكَشَ اللَّوْنِ ، زَهَى  
الْلَمْعَانِ

\* \*



اقتحمت معارك الفصحى والعامية في جُردِ وإقدام  
برهنت بالدليل أن الأولى لا تنكر أبوتها للأخرى في تمام ودوام

\* \*

فالتسبب بينهما واضح جليٌ عنيد

لا ينكره إلا كلُّ مُخادعٍ مدَّعٍ عنيد

\* \* \*

( ٤ )

شكت أحرفُ الكلمات في قَدِّها الموروث تخلفها ، وأنها

أصبحت على ركب الحضارة متأبئةً عسيرة

فأسرعت عبقرتيك تصوُّرها للطباعة أشكالاً أليفة يسيرة

\* \*

خرجت في صورتها التي صورتها تتناغم معها آلاتُ

التكنولوجيا العصرية

أدت على وجه الكمال وظائفها الأساسية واستجابت تلبى

رغباتها الفرعية

\* \* \*

(٥)

احتضنتك الصحافةُ زهرةً في عمر الربيع  
فغرّدَ قلمك الرضيعُ بالمتشور البليغُ وبالنظم الرفيع

\* \*

كنت في ساحتها ، على حدائقك ، صنوّ عظماء المفكرين  
المجيدين

وفي فطنتك الفتيةِ وجيهاً بين المبدعين المجددين

\* \*

كأنك حين ترنّمتَ بالمقالات وتغنّيتَ بقصيد الأشعار  
موسيقارُ أبدع ، في مهبّ النغم ، ألحانَ الأفكار

\* \*

لم تقف مكتوفاً عندما احتد الجدل عن « أمير المنظوم » واحتدم  
تشييع لعبقريته الفذة ، في رفاة شاعريتك ، تذودُ عنه ، قُطنَ  
المنطق قديرَ القلم

\* \*

غدوتَ على خصومه ، السيفَ القاطع ، فنعمَ النصير  
عركك « أصحاب الديوان » شواظ عذاب ، وبس المصير

\* \*

نَعَتِكَ الصَّحَافَةُ بِقَلْبٍ كَسِيرٍ ، وَعَيْنٍ قَرِيعٍ ، وَلِسَانٍ لَاغَى كَلِيلٍ  
مَا فَتَتَنَّا نَنْشُدُهُ بِنِضَالِكَ الْمَجِيدِ ، وَنَمْتَنُّ لِإِسْهَامِكَ الْجَلِيلِ

\* \*

اسْتَحَقَقْتَ مِنَّا ، عَنْ حَقٍّ وَجَدَارَةٍ ، التَّعْجِيدَ وَالشَّاءَ  
لَمْ يَكُنْ مَا قِيلَ فِي رِثَائِكَ إِفْكَاءُ وَرِيَاءُ وَافْتِرَاءُ

\* \* \*

( ٥ )

بكاك مع الباكين تلاميذك من نابهي المستشرقين  
جلسوا في مأتمك جلوسَ الطير الحزين متأزمين مذهولين حائرين  
تائهين

\* \*

كيف يتسنى لهم ، بعد انطفاء نبراسك ، التعامل مع العروض  
والفقد وأصول الدين ؟  
كيف لا يكون وهم إليك بالفكر منتمون وبما أتقنوا من دروسك  
مدنين ؟

\* \*

ألم يُقْبِلُوا على ناديك وهم باللغة وأعرافها جاهلين ؟  
فأنزلتهم ساحتك على الرُحْب في كرم ضيافةٍ مُقيمين ، ومن نبع  
معارفك مُنْهَلين ؟

\* \*

خُرِجْتَ من تحت يديك كلُّ ما هو شرقيُّ مفتونين مبهورين  
ولكل ما هو « شوقي » حامدين شاكرين

\* \*

تَغْنُوا بِمَا اسْقَبْتَهُمْ مِنْ رَحِيقِ الشَّرْقِ وَشَهْدِ سَاجِدِينَ  
كَأَنَّكَ الْفَرَاتُ ، يَشْبَعُ بِرَحِيقِهِ ، غَمُوضَ الشَّرْقِ وَسِحْرِهِ ، فَوَقَعُوا  
فِي هَوَاهُ عَاشِقِينَ

\* \* \*

(٦)

نَزَلْتَ السَّجْنَ زَهْرَةً مِنَ الزُّهُورِ الْفَتِيَّةِ  
لَمْ تُعَوِّضْكَ حَدَاثَةُ السَّنِّ أَنْ تَقُودَ الْمَظَاهِرَاتِ الْوَطَنِيَّةِ

\* \*

اسْتِضَافُوكَ فِي مَحْبِسِكَ تَحْطِيطاً لِمُشَاعِرِكَ الْفَائِزَةِ  
لَمْ يَطُوَ ظِلَامُ الْمَحْبِسِ فِكْرَكَ أَوْ يَفْتِ فِي إِرَادَتِكَ الشَّائِرَةِ

\* \*

أَرَادُوا أَنْ يَحْطُوا مِنْ قَدْرِكَ ، فَسَمَا السَّجْنَ عَلَوْاً بِمَقَامِكَ  
زَيَّنْتَ مَحْبِسَكَ بِفَضَائِلِ نِصَالِكَ

\* \*

مَنْ سَجِنَ مُطَالِباً يَبِيعُ الدِّسْتُورَ وَنَشُورَهُ  
كَانَ نَسْراً كَاسِراً فِي تَحْوِيلِهِ وَعَبُورِهِ

\* \*

ألم يقل « يوسف الصديق » عليه السلام : السجن أحب إليّ  
من حياة تملأها الرزيلة والآثام  
وهتفت أنت : السجن أحبُّ من عيشٍ أحياءُ حرّاً ، يتيم الدستور  
كفأقد الأب بين الأيتام

\* \* \*

(٧)

غزوت مجّمع الخالدين  
نَجْمًا من أنجم السامقين

\* \*

فكنتَ بينهم « شهادة استثمار » متواصلة الفائدة  
كثيرُ العطاء موفورُ الفائدة

\* \*

فطوى لك من عضو سامى المكانة مرموقِ المنفعة  
أياديك فى كل وادٍ دائبة منقبة مُبدعة

\* \* \*

أبت ستائر الخاتمة أن تُسدِّلَ على الفصل الأخير من نهايتك  
القاذحة

فتركت إسدالها لمسرح الأضواء تضيء تفاصيل حياتك العامة  
\* \* \*

(٨)

صُنِّتَ عهد هواك لا تسلو أبداً ذكراه  
ما زلت تعيش في حدادٍ برَّحْداج مغناه  
\* \*

أبيت أن يقاسم عشقك منافسٌ أو شريك  
يستأثر بك دونها ، وعن صفارك يفتنك ويلهيك  
\* \*

عشت في سعي حُبِّك تحتضنه وتُتمِّيه  
وبجفاف وجدانك تزكّيه وتغذيه  
\* \*

قُطِمت نفسك عن المرأة ومباهجها  
تُمهِّد لصفارك ، في حُضنك ، حنان الأمِّ ومناقبها

\* \*

أقسمت أن لن تسوسهم بعد الأم ضرة  
تسومهم العذاب ، فى عُنْفٍ غَيْرَتِهَا ، غيرُ رَحِيمةٍ ولا برةٍ

\* \*

أَسَكَّتَهُمْ من وُجْدَانِكَ الملهوفِ قَلْبِكَ الولهان  
تستكمل معهم ، بالصبر والتعاطف ، مسيرة الصقل والبنيان

\* \*

سلكت وإياهم حِقْبَةَ النشوء والارتقاء فى حُلُمٍ وحنان  
تُلْهِمُهُم المعارف والفضائل والبيان

\* \*

فَسَمَوْا أَنجَمًا زَاهِرَةً بين النجباء  
وانتشروا بينهم فى سماء النبلاء

\* \*

سَهَدُوا اللّيالى متنافسين على تمريضك فى مَحَبَّةٍ وَتَفَانٍ  
جزاء ما لاقوه فى كَنَفِكَ من عَطْفٍ وَحَنَانٍ

\* \*



لم يتمالكوا أن صاغوا من نَبَضَات قلوبهم أنشودةً تُحنان

لحنُهَا الشادى : المحبَّة والشكرُ والعِرْفان

دألم تقل الأمثال : « ابن الوز عوام »

فأطفالك ، فى نُبل سجاياهم ، امتدادٌ وبقاءٌ ودوام

\* \* \*

( ٩ )

فإليك ممن عجموك الثناء والتوقير

ومن عرَّكوكَ السلام والرحمةً فى رحاب الجنان الوفير

\* \*

تزقُّك إلى ابنتك ، فقيدة الطبِّ ، ملائكةُ السماوات العالية

تجمعُكُمْ ، بعد شتاتٍ ، فى ظل الحبيبة الغالية

\* \*

فانعموا فى جنان الخلد ناعمين بسعادةٍ غامرة

لن تجرؤ يدُ الزمن أن تُفرِّق بينكم فى قسوتها الغادرة

\* \*

أنتم الآن حيث الراحة والطمأنينة دائماً  
حيث يعزلكم عن الفراق والشتات سياجٌ حادٌ من استقرار وأمان  
\* \*

اسعدوا ... اسعدوا على الدوام  
وليكتب لكم الله الرحمة والسلام

الزمالك

شهر فبراير ١٩٩٢

---

رقم الإيداع : ٩٢ / ٥٢٢٤  
الترقيم الدولي : 5-050-241-977 : I.S.B.N.

---



